إبراهيم السمري

إبتسامات القدر

رواية

الطبعة الأولى ٢٠١٧

بطاقة الكتاب

عنوان المؤَلَّف : إبتسامات القدر

المؤلِّف : إبراهيم السمري

التصنيف : رواية

رقم الإيداع : 26171 -2017

عدد الصفحات : 152صفحة

رقم الإصدار الداخلي: 92

تاريخ الإصدار الداخلي: 12-2017

تصميم الغلاف والتنسيق: دار النيل والفرات للنشر والتوزيع

دار النيل والفرات للنشر والتوزيع

سجل تجارى : 13242

بطاقة ضريبية : 165-5-00031-572-01-35

رقم التسجيل : 544-662-202 2017-7

E-mail: alnile waalforat@yahoo.com

twitter: النيل والفرات

youtube: alnile waalforat@yahoo.com

facebook: alnile wa alforat

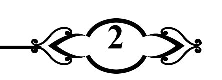
هاتف : 01202541192 - 01116202218 - 01011256943

الشرقية - العاشر من رمضان - مجاورة ١٣ - عقار ٣٠٤ - الدور الثانى - أمام سنتر ١٣

دار النيل والفرات للنشر والتوزيع

ALNILE WAALFORAT

أسسها الشاعر ناجي عبد المنعم



(1)

بعـد منتصـف النهـار بسـاعة واحـدة تقريبًـا، وأمـام قاعـدة "البريجات" الجوية وقف "عاصم" ينتظر لعل سيارة قادمـة تحملـه إلى أقرب مدينة كي يواصل منها رحلته إلى مستقره المجهول.. كانت الشمس قد اعتلت كبد السماء في نهار صيفي قائظ ، الشمس ترسل أشعتها المحرقة إلى الأرض فتنعكس فوق صفحة الرمال الممتدة عبر المـدى .. تتحـول إلـى حمـم بركانيـة غاضـبة تزحـف نحـو الوجـوه المكفهرة.. تكاد تذيبها من شدة لهيبها وسعيرها.. الرطوبـة الخانقـة، وحـرارة الشـمس اللافحـة تجعـل الصـدر ضـيقًا حرجًـا كأنمـا يصَّـعَّد صاحبه في السماء.

يتلفت عن يمينـه وعن شمالـه فلا يـرى إلا الرمـال المنبسـطة الممتـدة ، والطريـق المسفلت، وبعض الـتلال المتنـاثرة هنـا وهنـاك ، وجبالاً مشرئبة تقبع على مرمى البصر فـي خشوع الزاهدين، ووقـار العارفين .. !!

يقول في نفسه: ماذا حدث ؟! أين البشر ؟! هل خرجت إلـى عالم بائد؟! .. هل ضللت الطريق ؟! .. لا .. لا أظن .. أنـا لـم أتحـرك بعد.. لازلـت علـى بعد خطوات معدودات مـن كتيبتـي العسكرية التـي أمضيت فيها عامين كاملين ، ها هي قابعة خلفي تنبض بـالحيـاة ، لقد سلمت مهماتي وأنهيت خدمتي العسكرية فيها منذ سـاعة تقريبـاً، هل كنت في حلم ؟ أم صرت إلى حلم؟!

على أية حال لست أرى هنالك فرقًا بين ما أنـا تاركـه ، ومـا أنـا مقبل عليه ، فلماذا التوتر إذن؟! وفيم القلق ؟!!..

مـا الذي يجعلنـي في عجلـة من أمري ؟!..

لماذا أعد الساعات وأستبطئ الغيب القادم؟!..

أهو الخوف من أن يستدعوني ثانية ؟!..

ألا ليتهم يفعلون ..!!

لطالما تمنيت البقاء .. ولكم كرهت الفراق ، ولكنهم أبوا إلا أن يطلقوا سراحي، وينهوا خدمتي ..

في الواقع أنا لم ألتحق بالجيش رغبة فيه ، ولا حبًّا في الوطن ؛ لأنِّي باختصار لا أعرف معنى الوطن .. ربما لو كنت في زمن غير الزمن ، أو في ظروف غير الظروف لفهمت معنى الوطن، ولأدركت معنى الانتماء..!!

والعجيب أنني لست وحدي الذي لا ينتمي إلى هذا الوطن .. لقد اكتشفت أن كل من يعيشون على أرضه لا ينتمون إليه ، الفقراء لا ينتمون إليه ؛ لأنهم لا يجدون ما يجعلهم يشعرون بآدميتهم .. والأغنياء لا ينتمون إليه بدليل أنهم ينهبون ثرواته بلا شفقة ولا رحمة، ويتسابقون كالضباع في تمزيق أوصاله، وتقطيع أشلائه قبل مجيء المحتل المنتظر ..!!

ثلاثة وعشرون عامًا انقضت من عمري ما ذقت فيها طعم الوطن، ولم أشم رائحته.. كم حاولت أن أفتش عن ثماره فلم أجد إلا الحنظل ..!!

كم حاولت أن أتنسم عبيره فلم أجد إلا الروائح الكريهة، والعوادم القاتلة..!! كم حاولت أن أتودد إلى أهله ، وأتمسح فيهم عساهم ينظرون إليّ نظرة رحمة ، فما نالني منهم إلا البصق في وجهي ، وركلي في قسوة بأحذيتهم..!!

كثيراً ما سألت نفسي: ماذا تعني كلمة (وطن) ؟! أهو الأسرة التي حرمت دفئها وعطفها وحنانها ؟! .. أهو الأرض التي أعيش عليها غريبًا.. ذليلًا .. طريدًا.. محرومًا .. مكبَّلًا ؟!.. أم هو القوانين الصارمة التي لا تطبق على أحد سوى المطحونين والبؤساء والعاجزين ؟!

من أجل هذا كله فإنني لم ألتحق بالجيش طواعية ، وإنما كان هناك سببان دفعاني إليه دفعًا .. أولهما: أن كل صاحب عمل يسألني أول ما يسأل عن موقفي من المعاملة العسكرية ، فإذا أخبرته بأن موقفي لم يتحدد بعد انصرف عني، وأدار إليَّ ظهره، وثانيهما: أني أردت أن أبحث لنفسي عن مأوى يؤويني، وعن مكان أجد فيه اللقمة السهلة التي تسد رمقي ، وهي بالطبع ليست مضمونة ولا مأمونة إلا في مكانين : الجيش والسجن ، وحيث إنني أكره كلمة السجن، ولا أحب سماعها، قررت أن أبحث عن لقمتي في الجيش، وبهذا أكون قد ضربت عصفورين بحجر، ضمنت لنفسي بعض اللقيمات لمدة لا تقل عن عامين، ومن جهة أخرى أكون قد حصلت على شهادة المعاملة التي تؤهلني لأي عمل فيما بعد، ومع أن الحياة في الجيش لم تكن حياة كريمة بل حياة ذل ومهانة واستعباد وخاصة للفقراء والضعفاء ومن لا يملكون الواسطة التي تجعلهم في حل من قوانينه، إلا أنها كانت في نظري أفضل بكثير من حياة الضياع والتشرد التي كنت أحياها قبل الالتحاق بالجيش.

إن من لم يعش حياة بائسة كالتي عشتها، ولم يتعرض إلى ظروف طاحنة كالتي تعرضت لها لم يكن ليعرف أو يقدّر قيمة النعمة التي هو فيها ، ولذا ترى كثيرًا من المجندين يتمردون على حياتهم، ويتلهفون إلى تلك اللحظة التي تنتهي فيها خدمتهم العسكرية ليتحرروا من هذا القيد الذي يكبت حريتهم ، بل إن بعضهم ليعتبرها

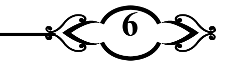
لحظة ميلاده ، وكثيرًا ما كان هؤلاء المجندون يرددون المثل القائل: (الداخل مفقود، والخارج مولود).

نعم .. كل فرد يتمنى هذه اللحظة ؛ لأنه يشتاق إلى عالمه الذي افتقده قبل أن يساق إلى هذا السجن مرغمًا، يشتاق إلى أهله وأصحابه وأحبابه، يشتاق إلى عمله، ومراتعه، وأسماره، يشتاق إلى حريته التي ودّعها قبل الالتحاق بالخدمة، يشتاق إلى بيته الحاني الدفيء، يشتاق إلى محبوبته التي رضع معها أفاويق السعادة، ونسجا سويًّا خيوط أحلامهما الوردية في مستقبل عذب منير.

أما أنا فأختلف عنهم في كل شيء .. إنني لا أشبه أحدًا منهم ، لقد قضيت مدة خدمتي كلها دون أن أحصل على إجازة واحدة ، وليس هذا إجحافًا من أولي الأمر، بل رغبة مني.. كنت أرفض النزول لأنني لست أملك ما يملكه زملائي.. ليس عندي ما أشتاق إليه ، ويشتاق إليّ.

من أجل هذا فإنني لست أرى هذا العالم الرحب الذي أنا ذاهب إليه الآن إلا سجنًا أشد إظلامًا، وأكثر طغيانًا، وأحدّ قسوةً، وأمضَّ ألمًا مما كنت فيه، لقد كان الجيش بالنسبة إلى ما أنا صائر إليه جنة ونعيمًا، كان بردًا وسلامًا، كان سترًا وحنانًا، كان أمنًا وأمانًا، بل كان أنسًا ورحمة ،.. ليتني ظللت الدهر بين جدرانه..!! وقضيت العمر خلف أسواره..!

فيم العجلة إذن ؟!.. لو كان لي بيت ، أو أهل ، أو رفيق ، أو صديق ، أو عمل .. لأطلقت ساقي للريح سعيًا إليه، ولكنني مقدم على بحر لُجِّيٍّ ، وعواصف عاتية ، وغياهب مفزعة ، وأمواج متلاطمة وتيارات عنيفة بلا مجداف ، أو شراع ، أو بوصلة أو مصباح..!



لماذا أنتظر سيارة قادمة ؟ إنني لا أرتبط بموعد، ولا يهمني الزمن..

غير أن المسافة بعيدة ، وأنا مجهد، والشمس حارقة، ونسبة الأكسجين في الهواء ضئيلة .. هذا ما يجعلني أحلم بقدوم سيارة تخفف عني بعض الآلام.

حمل "عاصم" حقيبته .. يمم وجهه شطر المدينة ، ومضى في طريقه ، وئيد الخطى ، مثقل النفس ، حاملا على عاتقه جبالاً من الأحزان ، وتلالاً من الهموم والأثقال ، وكثبانًا من الخوف من ذلك المصير الغامض المجهول .

تداعت الأفكار، ودار في خاطره شريط الذكريات ، تذكر أباه.. ذلك الرجل القاسي الذي لم يحنُ يومًا على ولده ، ولم يضمه مرة إلى صدره ، ولم ينظر إليه نظرة شفقة أو رحمة ، يتذكره بقسماته القوية الخشنة ، ونظراته الحادة النافذة ، وصوته الأجش ، وقامته الفارعة ، وجبينه المقطب الذي لا يستسلم لانفراجة إلا أمام زوجته ، بل ربما تغيرت كل قسمات وجهه وعاد طفلا بريئا ، و حملا وديعًا أمام سحرها الأخاذ ، وجمالها الفتان .

إنه على استعداد لأن يضحي بالدنيا كلها من أجل ابتسامة رضا، أو حركة دلال منها .. كثيرًا ما ضرب طفله الصغير ، وحرمه الطعام إرضاءً لها، وكثيرًا ما قيده وحبسه في حجرة مظلمة بأمر منها .. كانت ترى في تعذيب هذا الطفل لذة لا تعدلها لذة ، وتأنس بمعاقبته صباح مساء على كل صغيرةٍ وكبيرة .

نعم .. كانت زوجة أبيه امرأة جميلة في مظهرها لكنها حية رقطاء في مخبرها .. تبدو في هيئتها قطة وديعة لكنها تحمل بين

ضلوعها قلب ذئب ضارٍ يتربص بفريسته ، ولا يعرف من الطباع إلا اللؤم ، والغدر، والافتراس.

توقف شريط الذكريات فجأة .. ثاب "عاصم" إلى عالم الواقع المشهود.. استيقظ من كابوسه الكامن في أعماق عقله الباطن، على صوت سيارة نصف نقل ماركة "شيفروليه" الدبابة تمر إلى جواره .. يبدو من الأسطوانات التي تحملها أنها تابعة لشركة ألبان.. رمقها بعين بائسة ، وشيعها بنظرات ثكلى لأنه لم يتمكن من الإشارة إلى السائق ؛ إذ كان سابحًا في خياله ، ومستغرقًا في ذكرياته.

لم تبعد السيارة كثيرًا حتى توقف السائق .. لاحت له في الأفق بارقة أمل جديد .. تطلع إلى السيارة بلهفة .. تمنى لو كان السائق يراه في المرآة ..فوجئ برجوع السيارة إلى الخلف قادمة نحوه .. لعل السائق قد أشفق عليه بعد أن وجده في هذه الصحراء منقطعًا وحيدًا ، تحرك نحوها بخفة حتى التقيا ، نظر إلى السائق ليشكره ، فرأى رجلا تمثلت فيه كل علامات الطيبة ، رجلا يختلف في مظهره وطباعه عن الصورة القاسية التي يحملها في سراديب عقله لأبيه ، هو رجل في أوائل الخمسينيات من عمره ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، ذو بشرة نحاسية ، وقسمات هادئة ، وجبهة عريضة ، وعينين بنيتين صافيتين ، وشارب خفيف ، ورأس مستدير قد خطه الشيب.

حيَّاه السائق بابتسامة لطيفة حانية ودعاه للركوب .. بادله "عاصم" تلك الإبتسامة .. وركب معه .. انطلق السائق يقطع المسافات الطويلة في صمت ، يبدو أنه لا يحب الثرثرة ، كذلك "عاصم" لا يحب الكلام الكثير بطائل أو غير طائل ..كلاهما يشبه الآخر في سمته ووقاره..

لكن السائق كان بين الحين والحين ينظر خلسة إلى "عاصم" ويتعجب ويقول بصوت خفيض يشبه التمتمة :

ـ سبحان الله .. يخلق من الشبه أربعين ..!!

تكرر هذا المشهد أكثر من مرة حتى لاحظ "عاصم" ، فسأله :

ـ أتعرفني ..؟!

أجاب السائق :

ـ كأنك هو ..!!

قال "عاصم" في تعجب :

ـ من ؟

لم يجب السائق .. لكنه جعل يحرك رأسه في دهشة ويقول:

ـ سبحان الله .. يخلق من الشبه أربعين..!

ثم التفت إلى "عاصم" ثانية وسأله:

ـ من أين أنت؟

أجاب "عاصم" :

ـ من القاهرة ..!

ـ ألك إخوة أشقاء ؟

قال "عاصم" :

ـ لي إخوة من أبي ..!

ـ ألك إخوة من أمك ..؟!

ـ لا ..أمي أنجبتني ، وتوفيت بعد الولادة مباشرة.

ـ سبحان الله .. قادر على كل شيء ..!

لم يمض من الوقت إلا نصف ساعة تقريبًا حتى بلغا مشارف المدينة ، هنالك أدخل "عاصم" يده في جيبه ليخرج حافظة النقود كي يدفع للسائق أجرته.. نظر إليه السائق نظرة عتاب، وقال له:

ـ ماذا تفعل ؟!

أجاب عاصم بابتسامة وديعة :

ـ لا شيء ..

مد يده إلى السائق بورقة مالية فئة الخمسة جنيهات ، وقال في خجل:

ـ خذ أجرتك يا سيدي .

توجه إليه السائق عاتبًا :

ـ يا بني .. هذه ليست سيارة أجرة .

أجاب "عاصم" ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة:

ـ يكفي أنك قد أخّرت نفسك ، ووقفت من أجلي في طريق منقطع



ـ يا بني .. أنت مجند .. كان الله في عونك .

ـ وماذا في المجند ؟!

ـ لا شيء .. ولكنه في حاجة إلى مصاريف .. أعلم أنهم لا يعطونكم إلا مبالغ زهيدة وجنيهات معدودة .

ـ هل عندك أولاد يا سيدي؟

ـ الحمد لله يا ولدي .. لي أبناء مثلك ، تصدقني إذا قلت لك بأني ظننتك أحدهم ؟

ـ أصدقك .. ولكن هل أنا أشبههم إلى هذه الدرجة ؟

ـ لدي ابن يشبهك كثيرًا.

ـ بارك الله لك فيهم .. ورزقك برهم ؟

ـ وبارك الله فيك يا ولدي.

مازال "عاصم" يلح عليه أن يأخذ الأجرة ، لكن السائق قال له

ـ لن آخذ أجرة منك .. أدخل حافظتك في جيبك ، وتوكل على الله ، إلا إذا كنت متجها إلى طنطا .

ـ لا .. أشكرك يا سيدي ، فأنا متجه إلى القاهرة .

ـ إذا كنت في حاجة إلى مساعدة من أي نوع لا تتردد ؛ فأنا مثل أبيك ، وأنت مثل ابني..!

ـ أشكرك .. يا أبي .. على كل شيء، بارك الله فيك وفي أبنائك.

ودّعه "عاصم" بابتسامة حانية ، وانحناءة لطيفة ، ثم اتجه إلى موقف السيارات كي يركب السيارة المتجهة إلى القاهرة ، وقد انفرجت أسارير وجهه .. هاهي الدنيا عامرة.. ليست كما يتصورها .. لا يزال فيها رجال طيبون ، هاهم الناس من حوله يتحركون ذهابًا وإيابًا .. يحدوهم الأمل .. يضحكون ويتندرون رغم ما يلاقون من شظف العيش ، وقسوة الفقر، وآلام الشقاء ..

لماذا التجهم إذن والخوف من المستقبل ؟

لماذا يموت في قلبه الأمل .. ويتبدد الرجاء؟!

إن الدنيا تقبل على من أقبل عليها ، وتعرض عمن أدار لها ظهره ، حتى لو لم تقبل فهي ليست الدار الباقية ، وإنما هي دار ابتلاء واختبار لا دار بقاء وقرار، ولذا ينبغي عليه أن يطوي صفحة الماضي البئيس، ويستقبل الدنيا بوجه متهلل، ونفس راضية .

****

(2)

فـي موقـف السـيارات يعلـو الضـجيج، وتخـتلط الأصـوات .. أصوات السـائقين ينـادون علـى الركـاب ، وأصوات الباعـة الجـائلين الذين يتمتعون بفراسة غريبـة ، وقدرة عجيبـة علـى تمييز الوجـوه ، ومعرفة من يتجلى الحياء في سحنته ، ومـن يتصف بقدر غيـر قليل مـن البلادة أو السماجة أو الجـرأة ، أو ربمـا سـوء الأدب.. يركضـون سـراعًا نحـو القـرويين السـذج الـذين لا يفتئـون ينبهـرون بمـا يعـرض علـيهم مـن أصـناف العطـور المزيفـة ، أو الجـوارب الرخيصـة ، أو الحلـوى المغشوشـة ، أو المسـليات كاللـب والسـوداني والحمـص والترمس وحب العزيز ، وما إلى ذلك.

المكان يعج بالحياة لكنها حياة يشوبها شيء من الضجر يلوح فـي وجـوه الحاضـرين ، وفـي كلمـاتهم ، وحركـاتهم المجهـدة ، ربمـا يكون مرجعه إلى ارتفاع درجة الحرارة ، أو إلـى غلاء المعيشـة ، أو إلى السفر ذاته ، ولم لا ؟ أليس السفر قطعة من العذاب؟!

لا تبدو على قسمات وجه "عاصم" علامات استهجان لمـا يـراه هنـا لأنـه طويلًا مـا اعتـاد علـى مثلـه، بـل لقد رأى مـا هـو أكثـر منـه وأفظع في شوارع القاهرة المزدحمـة ، وفـي أحيائهـا الشـعبية ، وفـي ميادينهـا التـي لا تحصـى ، ومواصلاتها التـي لا يكـاد الراكـب أن يجد فيها موطئًا لقدم ...

وسـط هـذا الزحـام ، وتحـت الركـام ، وعلـى الأرصـفة، وفـي المزابـل ، والخرائـب ، والأمـاكن المهجـورة ، وتحـت الكبـاري كـان يعيش "عاصم" هو وأقرانه من أولاد الشوارع بعدما طرده أبوه من

البيت بإيعاز من زوجته المتسلطة .. كان هؤلاء الأولاد يفترشون الأرض ، ويلتحفون السماء .. الناس يمرون بهم غير عابئين لا يأبهون لهم ، ولا يحفلون بهم ، كأنهم جرذان ضارة، أو هياكل موبوءة.

في النهار ينتشرون في الشوارع والأزقة والطرقات ، يستجدي بعضهم الناس في ذلة وانكسار، وبعضهم يحمل أنواعًا من البضائع الخفيفة، كالمناديل الورقية ، وأطواق الفل والياسمين، وبعض أنواع الزهور، ليبيعها عند إشارات المرور، يتحين بعضهم فرصة الوقوف المتقطع للسيارات الفارهة عند الإشارة ، فيطوقها أو يقوم بمسحها ، وإزالة الغبار عنها مقابل حسنة يأخذها من أصحاب السيارات الذين كانوا يعتبرون هذا لونًا من ألوان التسول ، فيعطون حينا ، ويغمضون العين أحيانا.

وهناك فريق آخر من أولاد الشوارع لا يردعهم وازع أخلاقي ولا ديني لأنهم لا يعرفون شيئًا عن الحلال والحرام ، وقد يعرفون لكنهم بسبب شدة الفاقة والإحساس بالتشرد والضياع تسوِّل لهم أنفسهم فكرة السرقة في أماكن الزحام .. في وسائل المواصلات ، وفي المحطات والميادين المكتظة بالناس ، وغالبا ما يكون أصحاب هذا الفريق خاضعين لنظام أكبر يوظفهم لحسابه كالمعلم "فرج الدبور" الذي يحتمي بمجموعة من البلطجية ، ولديه حاشية من الرجال يعملون بين يديه ويأتمرون بأمره ، كل رجل منهم يوظف مجموعة من أولاد الشوارع يعملون لحسابه ، وفي الليل يحصد ما يجمعون فيرمي إليهم بالفتات ، ويقتطع جزءًا لنفسه ثم يسلم الباقي إلى المعلم "فرج".

أما "حسان (باشا) النمر" فهو ملك المكيفات ، وتاجر السعادة كما يسمونه ، هذا الرجل بعصابته ، ورجاله ، ونظم إدارته يشبه دولة داخل الدولة ، لديه مخططون، ومشرفون على التخطيط ، ومنفذون ومشرفون على التنفيذ ، وهو من علية القوم ومن وجهاء المجتمع ، له أكثر من مشروع يختبئ وراءه كيلا يشك أحد في ثروته التي تتزايد كل عام بالمليارات.

رجال "حسان" يعتمدون على بعض أولاد الشوارع ــ ممن خضعوا لاختبارات دقيقة قاسية عصيبة - في ترويج بضائعهم، وتوزيعها على أصحاب المزاج الذين كثروا في هذا الزمان لأسباب كثيرة ، لعل أهم هذه الأسباب الهروب من الواقع المر الأليم بعد انقسام المجتمع إلى طبقتين : طبقة الذين أثروا ثراءً فاحشًا في ظل غياب الرقابة ، وانتشار الرشوة والمحسوبية بين أفراد المجتمع ، وطبقة الفقراء المعدمين الذين لا يجدون مسكنًا يؤويهم ، ولا لقمة تطعمهم ، ولا خرقة تكسوهم ، وإن وجدوا المسكن تهدَّم فوق رءوسهم ، وإن وجدوا اللقمة وجدوها محملة بالكيماويات المسرطنة ، فضلًا عن أنها لا تسمن ولا تغني من جوع ، وإن وجدوا الكسوة وجدوها بالية ملطخة بالأوبئة ، وفوق ذلك فإنها لا ترد عنهم حرًا ولا زمهريرًا.

هكذا ترى أولاد الشوارع .. ما بين باحثين عن اللقمة الحلال بما جبلوا عليه من الفطرة السليمة ، وكسالى يكتفون بالتسول والاستجداء ودفن رءوسهم في أكوام القمامة يبحثون عن لقمة خبز، أو قبضة أرز، أو قطعة لحم ، فإذا ما ألقيت عليهم بقايا طعام جديد من المنازل المجاورة أسرعوا إليها ، وانقضوا عليها كالضواري الجائعة ، والطيور الجارحة .. تسبقهم أيديهم إلى اختطاف قطع اللحم

والدهن والعظام التي لم تجرد من الفتات تمامًا يبتلعونها بشراهة ونهم..!

وترى آخرين منهم مقسمين ما بين طامع يسرق ، أو يبتذ بإرادته أو بغير إرادته ، مختارًا أو مهيمنًا عليه ، و باحث عن النشوة العجلى ، فيدفن كل همومه وأحزانه في سيجارة البانجو، ومتربص للقفزة الكبرى التي تجعله في مصاف الأثرياء.

أما "عاصم" فمختلف عنهم .. لا يربطه بهؤلاء المشردين إلا الإحساس بالغربة، وذلّ اليتم ، ومسكنة الضياع ، ومع هذا استمر في تعليمه ، يذهب إلى المدرسة كل صباح ، وبعد الظهر يعمل في إحدى الورش لينفق على نفسه ، ويدبر مصاريفه ، وتكاد تكون الحسنة الوحيدة التي أسداها إليه أبوه عن قصد هي إرساله إلى المدرسة ، والحسنة التي قدمها له بغير قصد أن أرسله في إحدى الإجازات المدرسية إلى ورشة الحاج " حامد البسيوني" ليتعلم صنعة ، كان الحاج "حامد" رجلا فاضلًا ، بشوشًا ، عطوفًا ، طيب القلب ، عفيف النفس، جميل الروح ، يحب الناس ويتمنى لكل البشر ما يتمناه لنفسه ، يساهم في أعمال البر ، وينفق في وجوه الخير.

لاحظ الحاج "حامد" قسوة المعاملة التي يتعامل بها والد "عاصم" مع ابنه الصغير، ولما علم أن هذا الطفل يتيم الأم اعتبره ابنًا من أبنائه .. فكان يحنو عليه ويرفق به .. ويأخذه معه في أوقات الصلاة إلى المسجد ، ويشرح له بعض ما استشكل عليه من أمور الدين في أسلوب بسيط يتناسب مع عقلية طفل صغير .

وذات صباح .. جاءه "عاصم" يبكي .. سأله الحاج "حامد" عن سبب بكائه .. أخبره أن والده ينوي إخراجه من المدرسة .. فكر الرجل وقدّر ثم قال لعاصم :

ـ لا تشغل بالك يا "عاصم" ؟

ـ هل ستقنعه بأهمية التعليم وضرورة بقائي في المدرسة ؟

ـ لا .. أنا أعلم عناد أبيك ، إن مثله لا يقتنع بسهولة.

ـ وما العمل إذن؟

ـ سنلجأ إلى حيلة ..

ـ وما الحيلة يا سيدي ؟

ـ ستأتي إلى هنا كل صباح قبل موعد المدرسة ، تلبس زيك المدرسي وتأخذ حقيبتك ، وتذهب إلى مدرستك ، وبعد عودتك من المدرسة تظل هنا في الورشة إلى آخر النهار ، وتعود إلى أبيك مع الغروب.

ـ ولكن .. كيف أدبر مصاريف المدرسة ؟

ـ لا تحمل هم المصاريف يا بني ، سأدبر كل ما تحتاج إليه ، المهم أن تجتهد في دروسك ، وتكمل تعليمك لأن العلم نور ، لا يعرف قيمته إلا من فقده.

ـ أنا لا أعرف كيف أشكرك يا سيدي .

ـ يا بني بل الشكر كله لله .

صدق الحاج "حامد" في وعوده ، وشرح لزوجته ظروف هذا الطفل اليتيم ، فأرادت هي الأخرى أن تشارك في الثواب فكانت تغسل ملابس هذا الطفل بنفسها، وتجهز له الحقيبة ، وتعد له بعضًا من السندوتشات.

ظل "عاصم" على هذه الحال لا يقرب بيت أبيه إلا في الليل ، ومع هذا كانت زوجة أبيه تتميز من الغيظ كلما رأته أمامها.. فكرت في حيلة لاقتلاعه من البيت .. زعمت مرة أنه قام بخنق ولدها الصغير .. تلقَّى على أثر هذا الزعم ألوانًا من العذاب ، ومرة ثانية خبأت حافظة زوجها في ملابس "عاصم" واتهمته بالسرقة ، فجن جنون الرجل ، وراح يرغي ويزبد ، وحكم عليه أن يفارق البيت .

لم يرد "عاصم" أن يكون عبئًا على الحاج "حامد" في الليل أيضا ، فقرر ألا يخبره بما حدث.. بحث عن مأوى يؤويه فلم يجد إلا رصيفًا تحت أحد الكباري ، فنام من شدة تعبه، ونهض مع الصباح ليذهب إلى بيت الحاج "حامد" كي يرتدي ملابسه ، ويأخذ حقيبته ، ويذهب إلى مدرسته.

تعرف "عاصم " على هؤلاء الأطفال المشردين ، كلٌّ يحمل في جعبته قصة تختلف عن الآخر، لكن خيطا يربطهم ، وسببًا أصيلًا هو ما أدى بهم إلى ما هم فيه من بؤس وضياع وتشتت ، هذا السبب هو قسوة الآباء والتفكك الأسري.

ظل هكذا .. يقضي النهار في شقاء وكبد ما بين الدراسة والعمل، ولا يلتقي برفاقه المشردين إلا في هدأة الليل حين يؤوون إلى مضاجعهم فيلجئون إليه ، ويلتفون حوله ، ويعتصمون به فكان لهم أخًا حنونًا ، وصديقًا عطوفًا.

هؤلاء الأولاد يعلمون علم اليقين أنه غير راضٍ عن أعمال بعضهم ، وكثيرًا ما أسدى إليهم النصائح حتى لقبوه بالشيخ "عاصم" .. لكن الأشقياء منهم يستعذبون ما يفعلون ، ويستمرئون ما يجمعون بحجة أنهم ينتقمون من هذا المجتمع الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من بؤس وشقاء ، وحرمان وضياع .

يجلس بينهم - رغم صغر سنه - كالأب الحنون يحكي لهم قصصا تقشعر لها الأبدان ، وتصطك لها الأسنان ، وتخفق لهولها القلوب ، والعجيب أنها ليست من حكايات الجن مع بني الإنسان ، وإنما من حكايات شياطين البشر مع الأبرياء ، شياطين البشر الذين أضحوا في عقول هؤلاء الأطفال أشد وحشية ، وأكثر ضراوة من شياطين الجن..

إن هؤلاء الأطفال لم تعد تفزعهم حكايات الجن لأنهم قد تصالحوا مع الجن ، ورأوهم أكثر وداعة من بني الإنسان ، كل الأماكن التي كانوا يرتادونها في الليل كانت مواطن للجن، لكنهم من شدة تعبهم ، وطول سيرهم وكدهم طوال النهار كانوا ينامون لا يحفلون بالأصوات المفزعة من حولهم ، ولا يشعرون بالأشباح المتحركة في كل اتجاه متشكلة تارة في صورة قطة ، وتارة في صورة أرنب ، وأخرى في صورة رجل ، لقد ألفت عيونهم هذه المشاهد ، واعتادت آذانهم على تلك الأصوات حتى أصبحوا لا يحذرون ولا يرهبون إلا واحدًا من اثنين : رجال البوليس ، أو أحدًا من أفراد أسرهم.

وربما أشفق "عاصم" عليهم فيروي لهم قصصًا رومانسية حالمة مما قرأه في مكتبة المدرسة ، قصصًا تعبث بخيالاتهم ، وتعزف على أوتار قلوبهم ، فتلمع عيونهم ، وتأنس أرواحهم ،

فيستلقون على ظهورهم في نشوة غامرة .. يتأملون البدر الساطع ، فيرى كل واحد منهم على صفحة القمر صورة الأميرة الجميلة وهي تعزف على قيثارتها في رقة ودلال، منتظرة فارسها المغوار .. يستسلمون للنوم في وداعة ، ويغوصون في نهر من الأحلام السعيدة

*****

(3)

أخيراً .. تحرك "الميكروباص" المتجه إلى القاهرة بعد أن كمل العدد، حاول "عاصم" أن يغمض عينيه ليسترسل في نوم عميق هربًا من ذلك الصداع العنيف الذي يقرع كل نواقيس الخطر في رأسه ، ويكاد يهشم جمجمته ، ولكن بلا جدوى فحدة الصداع أقوى من سلطان النوم ، فضلًا عن أنه لم يعتد النوم بالنهار حتى وإن كان متعبًا ، حتى وإن كان على سفر ..

كثير من الناس لا ينعمون بنوم هانئ ، ولا يغطون في سبات عميق إلا في وسائل المواصلات كالمجموعة التي ركبت معه هذا "الميكروباص"، فما إن انسلخت السيارة عن المدينة ، وانطلقت في الفضاء الفسيح ، وهبت من نوافذها نسمات رقيقة حتى استسلم كل من في السيارة للنوم باستثناء السائق وصديقنا "عاصم"..

نظر "عاصم" إليهم .. وجدهم يترنحون كالسكارى .. تميل رأس أحدهم حتى تستقر على كتف الآخر ، ويميل عنق الثاني فتتدلى رأسه على صدره حتى ليظنه من يراه من الخلف جسداً بلا رأس ..

قال في نفسه: والله ما أدري هل أغبطهم على ما هم فيه من نعمة أم أرثى لحالهم؟!

إنهم كالأموات .. أهم متعبون إلى هذه الدرجة ؟ أم صفت عقولهم فليس فيها ما يكدرها؟! أم أنهم مخدرون جميعا بقصد أو بغير قصد ؟!

لا .. أنا لا أعتقد أن يكونوا مخدرين .. لا جرم أنه الصفاء ..! فلو كان في عقولهم ما يشغلهم لما استطاعوا النعاس ، ولما وجدوا إلى النوم سبيلا .. لقد سئل الإمام "علي" ـ كرم الله وجهه ـ ذات مرة عن أقوى جنود الله في الأرض فقال : "أقوى جنود الله في الأرض عشرة : الجبال الرواسي، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفئ النار، والسحاب يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يهزم الريح ، والسُّكْر يهزم ابن آدم، والنوم يغلب السُّكْر، والهمّ يغلب النوم ، فأقوى جنود الله جميعاً الهمّ ".

ولأني أؤمن بهذه المقولة فأنا أعرف السبب الذي من أجله لا أستطيع النوم.. إنه الهمّ.. إنه الكرب والخوف مما هو آت ..!

أرسل "عاصم" بصره عبر نافذة السيارة.. يتأمل هذا الفضاء العريض، يتمنى لو كان عصفورًا يحلق أنَّى أراد ، ويغرد كيفما شاء ، دون أن تعبث به يد صيادٍ لاهٍ لا يعرف معنى الحرية ، ولا يدرك قيمة الغناء .

أمال رأسه على قائم حديدي بين نافذتين ، واستسلم من جديد لعاصفة الذكريات التي اجتاحت كل مسارب نفسه ، ودروب عقله ، تذكر يوم أن نجح في الشهادة الإعدادية، يوم قرر أن ينهي علاقته بالتشرد والبؤس ، ويعود إلى أحضان أبيه حيث الأمن والدفء اللذين حرم منهما طيلة الغربة..!

حيث الكرامة التي امتهنت في تلك السنوات العجاف التي قضاها بعيدًا عن أسرته .. أراد أن يقدم لأبيه هديه تبهجه وتنسيه غضبه منه وحنقه عليه ، وهل هناك هدية أعظم من أن يلقي عليه نبأ نجاحه ، بل نبأ تفوقه رغم ما كابده من عناء وما ذاقه من مرارة

الحرمان؟! أراد أن يقبل يده ، ويعلن أسفه واعتذاره ، وأنه لا يساوي شيئا في هذه الحياة بعيداً عن أبيه.

كان يسعى إليه مهرولا.. يطوي الأرض طيا .. يسابق الريح .. يمتلئ غبطة وسعادة.. ولم لا؟! أليس من حقه أن يشتاق إلى أبيه ، ويشتاق إليه أبوه ؟! أليس من حقه أن يفرح بما أنجز ، وأن يفخر به والده؟!

لقد قضى سبعة أعوام بعيدًا عنه منذ فارق البيت لأول مرة ، وها هو ذا يعود معترفًا بذنبه ، ومعلنًا ولاءه حتى وإن انهالت عليه كل يوم سياط أبيه الحارقة .. فهي على أي حال أرحم وأهون من سياط الزمن المهلكة..!!

قرع الباب .. دقات قلبه تعلو.. أطرافه ترتعد .. جبينه يتفصد عرقاً.. أهو الخوف ؟!.. لعنة الله على الخوف ..!!

خرج رجل بدت على قسماته علامات البؤس، عليه أطمار بالية، رائحة الفقر ، ورياح الضنك تتسلل خارجة من البيت .. تنفذ من تحت ذراعيه اللذين أسندهما على مصراعي الباب كمن يحذر وقوعهما ، أو لكأنه يريد أن يحجب من في البيت عمن وقف إزاء الباب .. ولربما أراد بوقفته هذه أن يمنعه من الدخول تأمل وجه "عاصم" وأمعن فيه النظر ، ثم قال بلهجة مستنكرة:

- من أنت ؟!

نظر إليه "عاصم" نظرة شفقة ، وقال في دهشة :

- ألا تعرفني ؟!



بدت على وجهه علامات الغضب ، وقطب ما بين حاجبيه ، وقال بصوت أجش كأسد عجوز:

ـ أتختبرني ؟ من أنت يا ولد ؟!

ـ أنا "عاصم" .

ـ "عاصم" من ؟

ـ "عاصم" ابنك يا أبي ..!

زفر الرجل زفرة طويلة كأنه يتأفف أو يتضجر ، وقال:

ـ وماذا تريد ؟

ـ أريد أن أعود إلى حضنك يا أبي .. إلى إخوتي وأهلي ، لقد ذقت الذل والحرمان ، ونمت على الأرصفة بلا غطاء في برد الشتاء.

ـ ولماذا أتيت ؟! أنت الذي اخترت لنفسك هذه الحياة .. عد إلى ما كنت فيه ، عد من حيث أتيت .

ـ أبي .. لقد جئت إليك لأفرحك ، لقد حصلت على الشهادة الإعدادية بمجموع كبير.. بفضلك سأدخل الثانوي وألتحق بكلية تشرفك

ـ وهل تظنني سأفرح بك ؟ أنا لا أريد رؤيتك .. أنت في نظري من الأموات.

ـ كيف تقول هذا يا أبي ؟! أنا ابنك "عاصم" من لحمك ودمك ، هل يخرج الظفر من اللحم؟ لقد جئت أساعدك في تربية إخوتي ..!

ـ لا تساعدني ولا أساعدك .. اذهب واغرب عن وجهي ، وإلا بلغت عنك الشرطة يا لص يا متشرد .

ـ سامحك الله يا أبي .. ها أنت تطردني مرة ثانية .. على كل حال لن تكون أرحم بي من خالقي .. حسبي الله ونعم الوكيل ..!

عاد "عاصم" إلى عشه منكس الرأس كاسف البال .. يتعثر في خطواته ، كأنما سلب بصره ، أو كأنما هو في ليل حالك ، لا يكاد يرى كفه من شدة الظلمة.. آوى إلى زاوية من زوايا حجرة متهدمة بلا سقف في بيت مهجور يلقي فيه أهالي الحي مخلفاتهم وقاذوراتهم، وطفق يبكي بكاءً مرًا على نفسه وعلى أحلامه وآماله الضائعة ..

نظر إلى السماء فوجدها ملبدة بالغيوم كأنها تشاركه همومه وأتراحه ، وما هي إلا لحظات حتى هطل المطر بغزارة ، واجتاحت الحي موجة من الصقيع الشديد .. غُلِّقَت الأبوابُ والشبابيك في العمارات المجاورة ، وهرول الناس إلى منازلهم ليجلسوا حول نار المدفئة ، أو حول مدفئاتهم الكهربائية ، أو تحت ألحفتهم الوثيرة وبطاطينهم الناعمة في جو عائلي دفيء .. لكن أحدًا من هؤلاء لم يخطر بباله أن هناك أناسًا من البشر .. قد انقطع بهم السبيل .. وانقطع بهم الرجاء حينما انقطع عنهم الأهل ، وتركوهم في العراء يلاقون الأهوال ، ويتجشمون الأرزاء .. أناسًا هطل عليهم المطر وليس لهم مأوى يؤويهم ، وعصفت بهم رياح الصقيع وأمواج البرد القارس، وليس على أجسادهم غير أسمالٍ بالية ، وخرقٍ ممزقة.

رفع يديه إلى السماء ، وقطرات المطر تنهمر على رأسه ، ودموعه تتحدر على وجنتيه.. حرارة الدموع ولهيبها تنسيه برودة المطر ، ولسعة الصقيع .. قال في تضرع وخشوع :

إلهي وسيدي ومولاي .. رفقا بعبدك الضعيف .. إلهي لن أقول في محنتي هذه إلا ما قاله سيد الخلق أجمعين : "إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى".. يا واسع العطايا، يا باسط الأرزاق.. ارزقني من فضلك العظيم ، وخيرك العميم ، اللهم إني أسألك الأمان في الدنيا والآخرة ، وأسألك الهدى والرشاد والنجاح والفلاح.. اللهم إني قد فقدت الأهل والعزوة ، فاخلفني يا أرحم الراحمين خيراً منهم ..!

توقف المطر.. هدأت العاصفة .. اعتدل الجو .. صفت السماء .. لاحت الشمس كالدمعة الحمراء ، وهي تنحدر إلى خدرها ، ليسدل الستار عن ذلك النهار الكئيب .

****

(4)

استيقظ من نومه أحد الركاب ، كان شابًا نحيفا .. أسمر اللون .. شديد سواد الشعر ذا عينين غائرتين .. وجبهة عريضة .. في ملامحه طيبة .. ما إن يقع عليه بصرك حتى تأنس إليه ، وتحس كأنك تعرفه منذ زمن طويل .. انتبه "عاصم" من شروده .. كان ينتظر فرصة يتحدث فيها إلى أحد هؤلاء الركاب كيلا يشعر بالملل من طول الطريق.. وجد نفسه متلهفا لمعرفة أسرار هؤلاء الشباب الذين ركبوا السيارة دفعة واحدة ، وما إن استقروا في أماكنهم حتى أخذهم النعاس جميعًا.. توجه "عاصم" إلى هذا الشاب ثم قال له في تودد:

ـ صَحِّ النوم ..!

رد الشاب وهو يتمطى كأنه في سريره :

ـ صحّى الله بدنك .

سأله "عاصم" :

ـ هل هؤلاء الشباب معك ؟

أجاب :

ـ نعم ..

ـ ومن أين أنتم ؟

ـ من البحيرة ؟

ـ وإلى أين أنتم ذاهبون ؟!

ـ إلى شرم الشيخ .

ـ هل أنتم ذاهبون في رحلة ؟

ـ لا ، إننا نعمل هناك .

ـ وماذا تعملون هناك ؟!

نظر إليه الشاب بتوجس وقال:

ـ أسئلتك كثيرة .. من أنت ؟

ـ أنا "عاصم" من القاهرة .. حاصل على دبلوم صنايع قسم كهرباء.. أنهيت خدمتي العسكرية اليوم ، وليس لي عمل ، وأنا أسألك ربما تدلني على عمل.

ـ في الحقيقة .. لا أظنك تجد عملا يتناسب مع مؤهلك ، انظر إلى هؤلاء الشباب ؟ كلهم حاصلون على مؤهلات عليا ، منا من حصل على بكالوريوس في الهندسة ، ومنا من حصل على بكالوريوس في العلوم ، ومنا من حصل على ليسانس في الآداب أو في الحقوق لكننا جميعا نعمل أعمالًا بعيدة كل البعد عن تخصصاتنا .

ـ ماذا تعملون ؟

ـ بعضنا يعمل في الفنادق ..! وبعضنا يعمل في المعمار .

ـ في الفنادق ؟ ماذا تعملون في الفنادق ؟!

ـ مثل كل الذين يعملون .. نقدم الطلبات للزبائن ، أو نعمل في المطبخ ، نغسل الأطباق ، أو نساعد الطباخ ، أو نقوم بتنظيف دورات المياه .

ـ لكنه عمل لا يليق بمؤهلاتكم ؟!

ـ وهل أمامنا غيره ؟!

ـ تقول بأن بعضكم يعمل في المعمار .. أليس هذا صحيح؟

ـ بلى ..

ـ وماذا تعملون في المعمار ؟

ـ عمال بناء ، نحمل الطوب ، أو الرمل ، أو الأسمنت ، وأشياء من هذا القبيل .

بدت على وجه "عاصم" علامات الدهشة والإستنكار ، وقال في أسف:

ـ الآن فهمت لماذا أنتم تنامون .. لابد أنه التعب ، وطول الطريق .

ـ نعم يا سيدي .. إننا ننام حتى لا نشعر بطول المسافة ، وقسوة الطريق .

ـ وما الذي يحوجكم إلى هذا العناء ؟

- لقمة العيش ..! لو رفضنا هذا العمل فليس أمامنا سواه .. سنظل عالة على أسرنا ، ولن نستطيع أن نوفر أعباء الزواج ، وفتح بيوت جديدة.

- حقاً .. من اطَّلع على مصيبة غيره هانت عليه مصيبته ..!

- لماذا تقول هذا الكلام ؟!

- لا شيء ..غير أني تذكرت نفسي .. كنت أظن أنني سأصنع المعجزات بمؤهلي ، أين مؤهلي المتوسط من مؤهلاتكم العليا ، لابد أنكم ناقمون على هذه الأوضاع .

- نعم إننا ناقمون .. وخصوصا عندما نذهب إلى مقر عملنا نجد هوة سحيقة بيننا وبين المستثمرين ، وأصحاب الأعمال والمشاريع ورواد القرى السياحية ، والسائحين .. إننا نشعر حينئذٍ بالإحباط .. نراهم وكأنهم يهبطون علينا من السماء من كواكب أخرى غير كوكبنا .. نشعر وكأننا حشرات تسعى تحت أحذيتهم اللامعة.

- ولماذا لا تبحثون عن عمل في محافظة البحيرة أو في القاهرة ؟

- ماذا نعمل في البحيرة ؟ إنها محافظة فقيرة تعتمد على الزراعة والصيد ، وقد وزعت أراضيها ومزارعها السمكية على الأثرياء والمستثمرين ، أما بالنسبة للقاهرة فهي مدينة مغلقة ومكتظة .. لا تستطيع أن تستنشق فيها هواءً نقيًا .. الناس فيها يتحركون كالآلات لا يعبئون بمن حولهم ، الكل فيها غريب عن الآخر، حتى الأقرباء فيها قطعوا وشائج القربى، وكأنهم يطبقون المثل القائل : (إن جاءك الطوفان ضع إبنك تحت قدميك) .

تنهد "عاصم" وتوجّع كأن صاحبه قد وضع يده على الجرح، وقال في أسف:

ـ صدقت يا صديقي .. أحسنت الوصف ، ولكن هل يمكنني أن أطلب منك طلبًا؟!

ـ تفضل على الرحب والسعة .. نحن فلاحون وعندنا تقاليد وأصول ، ونخدم الغريب بأعيننا .

ـ أشكرك .. كنت أريد أن تكتب لي عنوان عملك .. لأنني ربما آتي إليكم قريبًا .

ـ أهلا بك ومرحبًا .. سيشرفنا وجودك معنا ..ولكن إذا أردت المجيء فلتكن معك أوراقك..!

ـ أوراقي؟ أي أوراق تعني؟

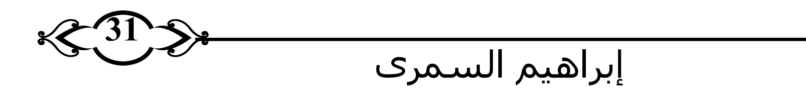
ـ شهادة المؤهل ، وشهادة الخدمة العسكرية ، والبطاقة الشخصية .. بطاقة الرقم القومي.

ـ كل هذه الأوراق معي ولكني لم أستخرج بطاقة الرقم القومي فهل البطاقة الورقية تغني؟

ـ لا .. يجب أن تستخرج بطاقة الرقم القومي لأنهم هناك لا يعترفون بالورقية .

ـ بسيطة من الغد إن شاء الله سأذهب إلى السجل المدني وأستخرج واحدة .

ـ على بركة الله..!



ـ أشكرك يا رفيقي على أدبك ولطف حديثك .

ـ العفو يا سيدي..!

كتب لـه العنـوان، ورقـم الهـاتف وأعطـاه إيـاه، شكره "عاصم" مرة ثانية ، وعاد إلى ما كـان عليـه مـن ذي قبـل ، يرسل بصره عبـر النـافذة إلى مداه فتعاوده الذكريات التي ملكت عليه حواسه ومشاعره، وطغت علـى يقظتـه الواهنـة التـي سرعان مـا ألقت إلـى الذكريات يـد السلم.

****

(5)

تـذكر "عاصم" ـ عنـدما انخـرط فـي الـذكريات ـ رفـاق الصـبا ، ليلـة عـادوا إلـى مهـاجعهم فـي ذلـك البيـت الخـرب فوجـدوه قـابعاً فـي زاويـة من زوايـاه وقـد تكـورت أضـلاعه وسـاقاه حتـى ليبـدو مـن بعيـد قنفذًا كبيـرًا .. صـاحوا بـه حتـى هـب فزعًـا .. سـألوه عـن سـبب حزنـه الممضّ ، فلـم يجـبهم بشـيء .. هنئـوه علـى نجاحـه ، وقـدم كـل واحـد منـهم هديتـه ، سـأله "صـابر" الذي كـان فـي مثـل سـنه ، لكـن مدة تشـرده أطول من مدة عاصم فيبدو أكبر سنًا ، إذ عركته الحياة فازداد تجربة:

ـ وماذا بعد هذا النجاح يا "عاصم" ؟!

قال "عاصم" وقد طغت على وجهه علامات اليأس والانكسار:

ـ لا شيء .. يا "صابر" .. لقد ضاع الحلم ، ومات الأمل..!

- ماذا تعني؟!

- أعني بأن الله قد كتب عليّ هذا التشرد ، ولا سبيل للنجاة ..!

- ماذا تقول ؟ هل أنت تهذي؟!

- لا .. بل أقول الحق ..!

رد "سعيد" وقد ارتسمت على محياه علامات الدهشة:

- أي حق تقول؟ أنت تتكلم بلغة اليائسين والعاجزين..أين قوتك ؟ أين عزيمتك وإرادتك؟ لقد تعلمنا منك الكثير ..!!

- إن العزيمة والإرادة لا ترد قدرًا ولا تمنع قضاءً .

قال "يسري" بنبرة غضب:

- لا .. لست "عاصم" الذي نعرفه .. أنت شخص آخر ..!

- بل أنا "عاصم" بشحمه ولحمه .. كنت أظن بأنني قادر على تحطيم الحواجز، وتحقيق المستحيل .. فإذا بالحواجز تقهرني ، والمستحيل يجهز عليّ .

سأله "صابر":

- هل ذهبت إلى أبيك اليوم؟

- نعم..!

- وأخبرته بنجاحك ؟!

ـ بالطبع .

ـ وماذا كان رده ؟!

ـ طردني ثانية، وهددني بتسليمي للشرطة إذا عدت إلى البيت مرة ثانية .

ضرب "يوسف" كفًا بكف وهز رأسه ثم قال:

ـ عجيب أمر أبيك هذا .. لو كان أحد غيره لتباهى بما صنعت ، رحمة الله على الحاج "حامد" لو كان حيًا لأقام لك حفلًا مهيبًا ، ولأغدق عليك الهدايا .

ـ إن عزيمتي لم تخر ، ولم تهدم إلا بموته ، رحمة الله عليه .. لقد كان لي نعم الأب ، ونعم الصديق ، ونعم المعين على نوائب الدهر.

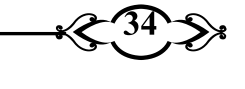
قال "صابر":

ـ أعتقد أنك لو ذهبت إلى أبنائه لأمدوا لك يد العون .

ـ بالعكس .. إن أبناءه يختلفون عنه في كل شيء ، لقد كانت الغيرة تقتلهم حينما يرونه يخصني ببعض الرعاية دونهم ، وتستعر في قلوبهم جذوة الحقد إذا ما اشترى لي كسوة ، أو أخذ بيدي لنصلي في المسجد ، إنني لم أشعر باليتم الحقيقي إلا بعد وفاة هذا الرجل الصالح .

ـ وماذا تنوي ؟

ـ سأكتفي بهذا القدر من التعليم .. وأبحث عن عمل .



ـ وما فائدة تعليمك إذن ؟!

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد أنك الآن تشبه من رقص على الدرج ، هل الشهادة الإعدادية مؤهل؟

ـ بالطبع لا ، ولكن يكفيني أني أصبحت أجيد القراءة والكتابة ، وأعرف كيف أقرأ القرآن بمهارة ، وأقرأ القصص والروايات والشعر والصحف .. وهذا يكفيني ، لقد ترك العقاد التعليم في المرحلة الابتدائية ، واعتمد على نفسه في تثقيف ذاته .

ـ أنت محق .. ولكن الابتدائية في أيام "العقاد" كانت تضارع الثانوية في أيامنا هذه ، سمعت الناس يقولون هذا ..!

ـ وماذا تريدني أن أفعل ؟

ـ أن تحصل على مؤهل ينفعك إذا بحثت عن وظيفة .. أم إنك رضيت بهذه الحياة وأخلدت إلى الكسل ؟ لابد أن تكمل تعليمك كي تفيد نفسك أولاً وتفيد غيرك.. فلكم سهرت من أجلنا ، وتعبت معنا حتى علمت مجموعة منا القراءة والكتابة ، وكنا ننظر إليك بمهابة وننتظر منك المزيد.

ـ مادام الأمر هكذا فأنا ليس أمامي إلا أن ألتحق بالثانوية الصناعية؟

ـ ولماذا ؟ ألم تحصل على مجموع كبير ويمكنك الالتحاق بالثانوية العامة ؟

ـ بلى .. ولكن الثانوية تحتاج إلى مصاريف باهظة ومذاكرة متواصلة ، وأنت تعلم ظروفي .. "رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ".

ـ على أي حال إن كان العائق ماديًا، فارم هذا الحمل عليّ وأنا كفيل به ..!

ـ أشكرك يا أخي .. لكن العقبة ليست في المال وحده ، الأمر يحتاج أن أتفرغ تفرغًا تامًا للعلم ، ثم إنني كنت أعمل في ورشة الحاج "حامد" وأفهم كثيرًا في كهرباء السيارات ، فإذا دخلت المدرسة الصناعية قسم كهرباء ازددت خبرةً وعلمًا ، وبلادنا لم تعد في حاجة إلى التعليم الجامعي بقدر ما هي في حاجة إلى التعليم الفني..!

ـ على أي حال .. أنت أدرى بقدراتك ، وأعلم منا بحالك ، مادمت ستحقق ذاتك وترفع من شأنك وشأن بلدك ..فليس أمامنا إلا أن ندعو لك بالتوفيق والنجاح.

التفت "عاصم" إليهم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة وضيئة ، وقال:

ـ أشكركم يا إخواني و يا رفاق عمري على مشاعركم النبيلة ، وأرجو الله أن يعينني على رد صنائعكم وأفضالكم عليّ.

ردوا جميعا عليه كأنهم جوقة :

ـ بل نحن الذين نشكرك لأنك فضلت البقاء بيننا يوم عرض عليك الحاج "حامد" أن يأخذك إلى بيته.

مسح "عاصم" دمعة تحدرت على وجنته حين تذكر الحاج "حامد" ، وقال :

ـ رحمة الله عليه .. دعونا يا رفاق ننس الماضي ، ولنبدأ حياة جديدة ، وتعالوا أعرض عليكم أمرًا يشغل تفكيري .

رد"صابر" :

ـ أي أمر هذا الذي يشغل تفكيرك ، أكثر مما نحن فيه؟

ـ هذا الأمر بالطبع له علاقة وثيقة بما نحن فيه ، لقد كبرنا ، ولا يصح أن ننام على الأرصفة ؛ لأن النائم كالميت لا يدري بحاله ، فربما تكشف الواحد منا فيؤذي المارة ، ولا يليق بكرامتنا أن ننام وسط القمامة في الأماكن المهجورة أو تحت سيارات الكارو، ثم إن لي أصدقاء ممن تعرفت عليهم في المدرسة لا أحب أن يروني في وضع سخيف أو هيئة مهترئة.

ـ وماذا تريدنا أن نفعل ؟

ـ أريد أن نستأجر شقة تجمعنا ، كل واحد منا يدفع جزءاً من الإيجار ، ويمكننا أن نعد فيها طعامًا لنا بدلاً من اعتمادنا على بقايا الطعام الملقاة فوق رؤوسنا، ونستقبل فيها أصدقاءنا بدلاً من أن نتهرب منهم ..!

ونستأجر شقة أخرى لأخواتنا البنات حتى لا يتعرضن للمخاطر، ولذئاب الشوارع ، والمخمورين .

رد "سعيد" ، وقد التفت إلى "يوسف":

ـ نعم .. وحتى نحميهن من أنفسنا..!

قال "يوسف" بلهجة المعاتب:

ـ علام تومئ يا سعيد .

قال "سعيد" :

ـ أنت تعلم .. وكنت قد أقسمت لأقولن لعاصم.

قال "عاصم" :

ـ عم تتحدثان.

قال "سعيد":

ـ تعرض "يوسف" لإحدى البنات، وتحرش بها .. لكنها صدته وهددته بالضرب إن لم يتراجع عنها.

التفت "عاصم" إلى "يوسف" ، ونظر إليه نظرة عتاب ، وقال:

ـ أنت يا "يوسف" ..؟! ألا تخجل من اسمك ؟ لقد سماك أبوك "يوسف" تيمنا بنبي الله "يوسف" عليه السلام الذي راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فلم يجبها وآثر السجن على الوقوع في المعصية .

أ لأننا أولاد شوارع نبيح لأنفسنا ما لا نبيحه لغيرنا ؟! هل تبلدت مشاعرنا ؟! إن هؤلاء البنات عرضنا وكرامتنا يجب أن نحميهن ، لقد ذقن ما ذقن من ألوان العذاب والضياع والحرمان ، ثم نكون نحن عليهن أيضًا، أهذه مروءة ؟!

أجاب "يوسف" وقد طأطأ رأسه خجلًا:

- إني أحبها..!

ـ تحبها؟! .. أهكذا يكون الحب؟! .. لو كنت تحبها بحق ما أقدمت على ما أقدمت عليه ، أنت هكذا تهينها ، تجعلها تشعر بالضياع أكثر مما تشعر به .. يا أخي ..الوردة الجميلة في بستان غيرك من حقك أن تنظر إليها ، وتشم رائحتها من بعيد .. لكن أن تمد يدك لتقطفها ليس من حقك ، وعلى صاحب البستان أن يعاقبك، هكذا بنات الناس.. زهرات جميلة في بستان الله .. إن مددت يدك إلى إحداهن فقد وقعت في محارم الله ، وليس أحد يمنعك من معاقبة الله لك.

أتوافقونني يا إخواني على استئجار شقة لأخواتنا البنات ؟

رد الجميع :

ـ نوافقك .

ـ ونستأجر لأنفسنا شقة ؟

صمت الجميع .

توجه إليهم "عاصم" وتساءل في حيرة:

ـ لماذا تصمتون؟

رد "يسري" :

ـ إننا تعودنا على الحرية والانطلاق لا نحب أن نتقيد بمكان ، أو أن نلتزم بشيء ، إننا هربنا من أهلنا لأننا لا نحب المسئولية ، ولأننا نكره القيود .

ـ كما تشاءون ..! ولكنني عزمت على أن أستأجر شقة صغيرة أو حجرة فوق أسطح أحد المنازل لأستذكر فيها دروسي ، وأستقبل فيها أصدقائي ، وأشعر فيها بوجودي وكرامتي .

قال "صابر" وعلى محياه ابتسامة رضا:

ـ أعانك الله ، وإن احتجت لشيء فنحن معك لن نتركك .

ـ أشكركم .

آوى كل واحد منهم إلى زاويته ، ودخل في جواله المصنوع من (الخيش) والمغطَّى بالمشمّع أو البلاستيك حتى لا يتسرب المطر إلى داخله.. وما هي إلا لحظات حتى غرقوا في نوم سحيق.

****

(6)

وصلت السيارة إلى مستقرها، وألقت رحالها في موقف "عبود".. نزل الركاب.. سلم "عاصم" على الشباب المجتهدين ، ودعاهم للاستضافة.. لكنهم شكروه واتجهوا إلى مكان السيارات المتجهة إلى السويس ليواصلوا رحلتهم الطويلة.. ودّعهم "عاصم" ووعدهم بلقاء قريب وزيارة قادمة في أماكن عملهم، ثم توجه تلقاء موطنه الذي ابتعد عنه عامين كاملين .. يا له من حنين جارف وشوق دافق لمرتع صباه .. ها هي القاهرة الشامخة بمبانيها الشاهقة، وضجيجها الذي يملأ الآفاق ، وكباريها التي لا تحصى، وأنفاقها المكتظة بالغادين والرائحين ، وشوارعها التي لا تكاد تجد فيها موضعا لقدم.. ها هي مدينة العجائب .. ساحرة القلوب ، وخالبة الألباب ، تتعانق في سمائها المآذن وأجراس الكنائس، وتضم في أرضها المباني الأثرية التي ترجع إلى العصر الأموي ، والعباسي، والفاطمي، والأيوبي، والمملوكي، والعثماني، إلى جانب المباني الحديثة في طرزها وتخطيطها .

ها هي المدينة التي تستقطب العلماء والأدباء والشعراء ، وأهل الفن ، وتستقطب السائحين من كل حدب وصوب .. ها هي هوليوود الشرق ، ومدينة الألف مئذنة ، تتعدد في ربوعها الأحياء وتتباين ما بين أحياء راقية أرستقراطية ، وأحياء متوسطة، وأحياء شعبية يطلقون عليها عادة (الصين الشعبية) تلك الأحياء التي لا تخضع لتخطيط ، ولا تحظى باهتمام من المسئولين ، وإنما تتحرك بقوة الدفع الذاتية ، كل ما فيها عشوائي ، كل ما يهم أهلها البحث عن الطعام ، ولأن دخولهم ضعيفة فلا يعرفون من ألوان الطعام إلا

الفول والطعمية ، ولهذا يصاب الأغلبية منهم بالنقرس ، ثم يتباهى أحدهم فيقول : إنه مرض الملوك ..!!

وإذا تجلت لأحدهم ليلة القدر وقرر أن يأكل لحمًا فلا يعرف إلا اللحوم المجمدة التي لا يعرف مصدرها ، وتنتشر في شوارع هذه الأحياء محلات الكشري.. والمصامت تلك المحلات التي تقدم لروادها الكرشة ، والفشة ، ولحم الرأس ، والممبار (أمعاء الحيوان المذبوح، محشوة بالأرز) والكوارع والفتة والتقاطيع ، تلك الأكلات التي ترفع نسبة الدهون في الجسم ، فتجعلهم مميزين في هيئاتهم عن أصحاب الأحياء الراقية، تبدو السيدة من أهل هذا الحي وهي تمشي أوزة تخطر في مشيتها لثقل جسمها.

كانت هذه الأحياء في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي مضرب الأمثال في الأخوة والمحبة والترابط والتلاحم والتفاني والإيثار والتضحية والتكافل الاجتماعي، أما الآن فقد تغير الحال ، لم يعد أحد يسأل عن الآخر بل لم يعد أحد يتحمل كلمة أو إشارة من الآخر .. في غمضة عين تجد السنج أو السيوف تسل لأتفه الأسباب ، وكأن كل واحد يتربص بالآخر..

الأفراح أصبحت مهوى السكارى ، وملاذ المخمورين ، يتباهون وهم يلفون البانجو في أوراق البفرة ، وكأن الواحد منهم يصنع معجزة، أو كأنما يصنع حاسوبا أو صاروخا ، ويرقص الشباب على إيقاعات صاخبة ، ونغمات شاذة ، وقرع على الطبول تشمئز منه النفوس السليمة ، وكلمات الأغاني المبتذلة التي لا تمجد إلا المخدرات وأصحاب الكيف والمزاج، وحينما يحمى الوطيس تراهم يتشاجرون فيتراشقون بزجاجات البيرة والخمرة والكينا ، ويؤذن للفجر فلا أحد يسمعه لأنهم في سكرتهم يعمهون.

قيم تبدلت وأخلاق انهارت في زحمة الفضائيات ، والخلويات (الهواتف الجوالة) ، والنت ، وغيرها من مستحدثات التكنولوجيا التي استخدمت استخدامًا سيئًا، وغياب الرقابة ، وضياع الهوية ، وافتقاد القدوة، كل هذه الأشياء شكلت جيلًا جديدًا يختلف اختلافًا جذريًا عما كان عليه آباؤه وأجداده ، جيلاً محبطًا يحقق آماله، ويخرج طاقاته في المخدرات ، وغيرها.

ورغم هذا الضياع فقد ترى على النقيض من ذلك صورة مشرقة، ترى شبابًا ملتزمًا قد هُدوا إلى الطيب من القول ، والصالح من العمل .. شبابًا يختلفون قلبًا وقالبًا .. شبابًا عكف بعضهم على القراءة وتثقيف ذاته.. ينتظر اللحظة التي تتحول فيها هذه القراءات عسلًا مصفى ليقدمه إلى مجتمعه عذبا سائغًا شرابه، وبعضهم يكافح في عمله لا يستسلم للقيم المنهارة ، ولا يعنيه انتشار الرشوة والوساطة ، لديه يقين بتبدل الحال وتغير الظروف في المستقبل القريب، وهناك بعض الشباب الذين عكفوا على العبادة والتدين .. ولأنهم يفتقدون القدوة اعتمد كل واحد منهم على اجتهاده وفهمه الخاص لما يقرأه ، ولهذا تراهم مختلفين في اتجاهاتهم بحسب ما وقع تحت أيديهم من كتب أو شرائط ..

ترى فريقًا منهم يعتزل الناس فلا يتعامل مع أحد ، وإذا سأله أحد عن سبب هذا الانطواء ، وتلك العزلة رد عليه بقول الله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، وفريقًا منهم يختلط بالناس .. يتعامل معهم بالرفق والرحمة واللين ، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. فيؤثر فيمن حوله، ويجذب إليه أصحاب الفطر النقية ، ومنهم من يتعامل مع الناس حتى مع أهله

بالعنف والقسوة والجفاء .. يشعر بأنه مميز عنهم فيتعالى عليهم ، فينفر الناس منه ، ويصرّون على مخالفته .

طاقات في المجتمع تحتاج إلى من يرشّدها ويوجهها.. شباب على كل لون ينتظرون هدفًا قوميًا يجمعهم ، ويحلمون بالعدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ..!

هذا هو المجتمع الذي يعيش فيه "عاصم" ، ويحلم أن يغيره ، لكن كيف ؟! وأنَّى له هذا ، وهو الضائع المشرد ؟! إن الناس يرمقونه هو وأقرانه بنظرات حادة ، ووجوه عابسة ، ونفوس مشمئزة نافرة كما يرمقون الكلاب الضالة ، والرمم البالية.

لقد حاول أن يهرب من واقعه ، وأن يتجنب نظرات الازدراء المصوَّبة إليه ، فاستأجر حجرة فوق سطح إحدى العمارات ، كان يستقبل فيها أقرانه من أولاد الشوارع وزملاءه ممن تعرف عليهم في المدارس، ولأنه قضى مدة الخدمة العسكرية بعيدا عنها ، إذ لم يتمكن من دفع إيجارها الشهري .. فمن المتوقع أن يكون أحد الفقراء قد قام باستئجارها ، ومن المتوقع أيضًا أن لا يرضى بها أحد ، فتظل على حالها .

لهذا كان مترددًا في الذهاب إلى حجرته.. يخشى أن تكون قد استؤجرت .. ولكن ما السبيل؟ وإلى أين يذهب ؟! لقد أصبح شابًا يافعًا وسيمًا تستحي الأعين أن تنظر إليه .. هل يرضى لنفسه في هذا السن أن ينام في العراء وتحت أكوام القمامة وهو لم يرضه لنفسه من ذي قبل .. ؟!

لم يجد بُدًّا من أن يذهب إلى تلك الحجرة التي شهدت ريعان شبابه .. فلربما تنتظره مثلما كان ينتظرها..!

توجه تلقاء البيت الذي توجد فيها حجرته .. يدعو الله أن تكون خالية لأنه في أمس الحاجة إلى مكان يؤويه بعد عناء هذا السفر .. يريد أن يلقي فيها بجسده المنهك ، وعظامه المكدودة .. وما أسعده حينما وصل إليها وعلم أنها ما تزال تنتظر عودته.. كحبيبة طالما انتظرت في لهفة فارسها النبيل.!!

علم "عاصم" من صاحب البيت أن صديقه "صابر" كان يدفع إيجار هذه الحجرة طوال العامين الماضيين حتى لا يستأجرها أحد ، ويأتي كل أسبوع لترتيبها وتنظيفها لتكون جاهزة لاستقبال صديقه الذي لم يفقد الرجاء يومًا في عودته..!

يا له من صديق وفيّ ، يا له من رجل مكتمل الرجولة ..! تُرى لو كان أخًا شقيقًا أكان يفعل ما فعل ؟!! حقاً صدق المثل القائل : "رب أخ لك لم تلده أمك ".

تمنى "عاصم" رؤية صاحبه حتى يشكره على معروفه ، أو يرد إليه بعض جميله، لكنه الآن متعب .. أجّل البحث عنه إلى الغد ، واستلقى على سريره بملابسه حتى حذاءه لم يستطع أن يخلعه ، قهره النوم ، وغاب عن عالم الوعي ليعيش ساعات وساعات تحت تأثير عالمه الباطن الذي تتزاحم فيه الصور ، وتتلاشى فيه الرؤى ، ولا تكاد تكتمل فيه الحكايات..!!

غريب عالم الأحلام هذا ..!

كل ما هو بعيد عنك في الدنيا قريب لك في عالم الأحلام .. كل ما هو ممنوع مباح لك .. كل المسافات الطويلة البعيدة تقطعها في لحظات.. كل الحواجز والأسوار تتبدد وتتلاشى .. تسمع ما لا يمكنك سماعه .. وتقول ما لم تستطعه في عالم الشعور.. ترى الأموات

والأحياء .. ترى شياطين الجن والعذارى الفاتنات .. وكلما تقلبت في فراشك انتقلت إلى دنيا جديدة .. تزورها روحك بينما جسدك يظل في مكانه هامدًا.

باب الحجرة يُقرع بشدة ، وصوت يناديه من خلف الباب ، أفاق من نومه .. اتجه صوب الباب .. فتح الباب وعلى عينيه غشاوة لا يكاد يتبين الذي أمامه ، وعندما لم يدخل الضيف رفع إليه بصره ليدعوه إلى الدخول فوجده صديقه "سعيد"، فتح "عاصم" ذراعيه ليحتضنه .. ارتمى "سعيد" في حضن صديقه "عاصم" كطفل صغير يرتمي في حضن أبيه، وجعل ينتحب .. أدخله "عاصم" الحجرة ، وحاول أن يهدئ من ثورته ، ويخفف من لوعته ..

سأله "عاصم" :

ـ هل كنت تعلم أني هنا ؟

ـ لا .. بل جئت قدرًا لأنظف الحجرة ..

ـ وأين بقية الأصحاب ؟

غلبه البكاء، ولم يستطع الكلام ..ربت "عاصم على كتفيه برفق، وسأله:

ـ ماذا يبكيك يا "سعيد" ؟! قل لي بالله عليك .. لا تقلقني .. أين الأصدقاء ؟! أين "صابر" ، و"يسري" ، و"يوسف" ، و"رمزي" ، و"سنقر" ، وبقية الأولاد ..؟! أين البنات؟! أين "وردة " ، و"زكية" ، و"أمل" ، و"صفاء"؟! هل قصرتم معهن وتركتموهن فريسة للذئاب الضالة ؟! رد يا "سعيد" .. ما عدت أتحمل صمتك.

نظر إليه "سعيد " وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، وقال في أسىً وحسرة :

ـ كل شيء ضاع يا "عاصم" .. كل ما بنيته تهدم .. لماذا تأخرت ؟! لو كنت معنا ما تبددت أحلامنا ، ولما تقوضت آمالنا .. كنت حصننا وملاذنا .. لماذا تأخرت علينا ؟! كم انتظرنا عودتك ..! منذ تركتنا وذهبت إلى الجيش ونحن كاليتامى، دهمتنا الدنيا ، وقهرنا الزمن ..!

لقد .. لقد مات "صابر" يا "عاصم".. مات .. !

قالها وأجهش بالبكاء ، انتفض "عاصم" انتفاضة الذعر .. نزل عليه الخبر نزول الصاعقة.. اتجه نحو "سعيد".. قبض على منكبيه بكلتا يديه ، وهزه هزة عنيفة ، وقال بصوت صارخ:

ـ ماذا تقول ؟ أجننت ؟ أتقول بأن "صابر" مات؟ لا .. أنت تكذب .. نعم أنت تكذب .. لقد قال لي صاحب البيت بأن "صابر" هو الذي يدفع إيجار الحجرة بنفسه كل شهر ..!

ـ هذا صحيح يا "عاصم" .. ولكنه مات منذ ثلاثة أيام فقط ..!

ـ كيف ؟! .. ولماذا ؟! .. وأين؟ ..لا .. لا يمكن .. مستحيل .

ـ إنه قضاء الله وقدره .

دار به المكان .. أحس بأن عموده الفقري قد انكسر .. خارت قواه .. لم يتمالك نفسه .. سقط على الأرض وغاب عن الوعي ..!

أسرع "سعيد" ليحضر كوبا من الماء ليرشه على وجه صديقه الذي لم يتحمل الصدمة.. لكنه لم يفق .. راح يجري هنا وهناك .. أطرافه ترتعد.. قلبه يخفق بشدة .. يخشى أن يكون "عاصم" قد مات كمدًا على رفيق عمره.. أحضر بصلة من الجيران وهشمها ووضعها في أنف صاحبه .. أفاق "عاصم" من غيبوبته ، وشرع ينتحب انتحاب الثكالى ، ويذرف الدمع الغزير ، و"سعيد" جالس أمامه في هم وكرب يحدث نفسه : ما الذي فعلته به ؟! ما الذي جعلني أصدمه بهذا الخبر؟! كان بإمكاني أن أراوغه .. أن أهرب من الإجابة بطريقة لبقة حتى يسأل غيري .. وماذا يمكن أن يحدث له لو عرف مني بقية القصة ؟! لا .. لن أكمل الخبر ..

ماذا يحدث له لو علم بأن "وردة" قبض عليها وهي تتسول في أحد الميادين ، واتصلت الشرطة بزوج أمها ليضمنها ، فجاء وضمنها وكانت الطامة الكبرى حين اعتدى عليها واغتصبها في تلك الليلة المشئومة فانتحرت المسكينة وقتلت نفسها ، ولما علم "يوسف" بهذا الخبر وكان يحبها حبا جنونيا ألقى بنفسه أمام المترو ومات هو الآخر..!

لن أخبره خبر الأولاد الذين استدرجوا إلى مكان بعيد خارج المدينة ثم ذبحوا وسرقت أعضاؤهم ، لن أخبره خبر الأولاد الذين أخذهم بعض رجال الأعمال بحجة تعليمهم، وتحسين مستوى معيشتهم، وعمل بعض الأبحاث عليهم، ثم باعوهم لرجال المخابرات الأمريكية كي يتم تجنيدهم في المارينز حتى يقتلوا بهم العرب والمسلمين .. نكبات ونكبات تشيب الولدان .. لا .. لن أخبره .. لن أكون نذير شؤم.. لن أكون سببًا في تدميره نفسيًا.. حسبه ما هو فيه..!

بعد حين هدأ "عاصم" ، وانقشعت غمامة الحزن التي خيمت على عينه ، ورانت على قلبه فترة من الزمن .. التفت إلى "سعيد" يريد أن يعرف بوضوح كيف مات صديق عمره ، وأقرب الأصحاب إلى قلبه ، وأحبهم إلى نفسه ، يريد أن يعرف كيف مات هذا البطل الشهم الذي لم يترك صاحبه في محنة ولا أزمة إلا كان معه كظله.. يشد من أزره، ويعينه على صروف الدهر ونوائبه.

سأله "عاصم" بعد أن سكنت نفسه ، وهدأت ثورته .. غير أن قلبه مازال يتحرق حزنًا ويعتصر ألمًا ، قال في هدوء الحكماء ، وثبات الصابرين :

ـ كيف مات "صابر" يا "سعيد" ؟!

سكت "سعيد" هنيهة ، ثم قال :

ـ ذهب "صابر" منذ أربعة أيام إلى (الدويقة) لزيارة خالته التي كان يبرها بعد وفاة أمه .. أخذ معه بعض اللحم والفاكهة والحلوى .. ألحت عليه خالته أن يبيت مع أولادها هذه الليلة ، وبينما هم نائمون سقطت صخرة ضخمة من جبل المقطم على أهالي المنطقة ، فلقي "صابر" مصرعه هو وخالته وأولاد خالته لم ينج منهم سوى غلام في العاشرة من عمره.

ـ أوّاه .. ليتني كنت معك يا "صابر" ، بل ليتني كنت مكانك .. لم يعد للدنيا من بعدك طعم ، ولم يعد للحياة معنى .. ماذا بقي لي في هذه الحياة ؟!

المصائب تتوالى وتتابع كسيل ليس له آخر.. فقدت الأم وحنانها وأنا في المهد، وطردني أبي وأنا في أحوج الأوقات إلى

عطفه ورعايته ، ومات الرجل الصالح الذي يرعاني قبل أن أستكمل تعليمي، وهذا صديقي وأخي وسندي في هذه الحياة الموحشة يذهب ضحية إهمال المسئولين ..!

آه .. ما أقسى قلوبهم ..! لست أدري كيف يقفون أمام ربهم ؟! ماذا يقولون حينما يسألهم عن هذه الأرواح المزهقة ؟! والأفواه الجائعة؟ والأجسام العارية ؟ لماذا تبدو الطبقات الفقيرة الكادحة في أعينهم حشرات ضارة يجب إبادتها ؟!

أي حياة تلك التي نحياها ولا نرى منها إلا وجهها القبيح ؟! ما قيمتها وما جدواها إذا خلت ممن نحب ومما نرجو ونأمل؟!

قال له "سعيد" :

ـ هوّن عليك يا أخي .. دع المخلوقين للخالق ، وفوض أمرك إلى الله .

ـ يا لها من حرقة ..! يا لها من لوعة .. أما كان قادرًا أن ينتظرني حتى أعود لأضمه إلى صدري ؟! .. لماذا القدر يعاندني ، ويسلبني كل ما أحب؟!

ـ يا "عاصم" إنها مشيئة الله وإرادته .. أنت رجل مؤمن .. كنت تعلمنا الصبر وها أنت تجزع كل هذا الجزع ؟ أين قوتك التي كنا نعهدها فيك ونحسدك عليها ؟! يا أخي .. سلم الأمر لله ، واطلب الصبر منه والسلوان .

ـ آه..لو رأيت النار المضطرمة في صدري يا "سعيد" لعذرتني .

ـ والله أعذرك يا أخي .. أعرف مكانة "صابر" في قلبك ، ومكانتك في قلبه، ولكنه القدر ، وليس أمامنا إلا أن نرضى بقضاء الله ، ونطلب منه الرحمة لصديقنا، ونسأله سبحانه الصبر لنا .

ـ نعم صدقت يا أخي .. لا نملك إلا أن نقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .. اللهم اؤجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيرًا منها، اللهم اغفر لصابر وارحمه ، وألهمنا الصبر والسلوان.

ـ أتأذن لي يا "عاصم" أن أعد لك طعامًا ؟ .. يبدو عليك الإعياء من شدة الجوع .

ـ يومان يا "سعيد" لم أذق فيهما طعامًا .

ـ أنت تهمل في نفسك يا أخي.. عشر دقائق فقط يكون الأكل جاهزًا.

نزل "سعيد" ليشتري أرزا وزيتا وملحًا ليعد لزميله ورفيق صباه طعاماً يأكله يدفن فيه آلامه وأحزانه الماضية والحاضرة ، وقام "عاصم" يتوضأ ليصلي ويدعو لصديقه "صابر" بالرحمة والمغفرة.

(7)

ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه بعدما غشيتها كدرة من الأحزان مظلمة، حينما عرف أخبار زملائه ، وما حدث لهم من نكبات مزقت شملهم، وبعثرت أحلامهم، وألجأتهم إلى الاستسلام للقهر، والإذعان لليأس ، والانصياع للشيطان الذي ما انفك يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا ، فمنهم من آثر الموت ولو كان الجحيم وراءه، ومنهم من ترك نفسه فريسة لأصحاب النفوس الدنيئة والقلوب الحجرية فلم يذق إلا الخسارة والضياع والشتات والعذاب ، كل هذا حدث لهم فترة غياب "عاصم" الذي كان يعصمهم ـ إلا القليل منهم ـ عن التردي في مهاوي المهلكات ..!!

لم يجد بُدًّا من هجر هذا المكان الذي يجدد عليه الأحزان ، ويجعله أسير الذكريات المفجعة الأليمة ، قرر أن يترك الحجرة ، ويفر إلى بلاد بعيدة عسى أن تكون أحن وأرحم عليه من هذه المدينة القاسية

يسائل نفسه في مرارة وأسى:

ـ لماذا أضيّق على نفسي وأرض الله واسعة ؟! لماذا أترك نفسي فريسة للضياع ، وبراكين الأمل تفور بين جوانحي ؟! لماذا أظل أسيرًا للذكريات وشعاع الحرية يلوح في الآفاق؟!

نعم .. لقد كانت لي في دروب هذه المدينة وبين أحضانها ذكريات وذكريات.. كم سرت في شوارعها.. ! كم توسدت أرصفتها..! كم رتعت، وكم ضحكت ، وكم بكيت..!! كم تنسمت هواءها ..! كم

غنيت نشيد البؤس في ليل الشقاء ..! كم قصصت على رفاقي من حكايا تحت أضواء القمر..!! كم نمت وكم صحوت على ضحكاتهم البريئة التي تحاكي تغاريد الطيور ..!!

ولكن .. لم يعد أمامي خيار إلا أن أفارق هذا المكان الموحش البئيس؛ إنني لو بقيت فيه لطاردتني أشباح الماضي اللعين في كل درب.. في كل طلل .. في كل زاوية .. في كل فناء من أفنية هذه المدينة ، وفي كل عرصة من عرصاتها .. وحينئذٍ لن يكون أمامي إلا أن أفقد عقلي ، أو أموت كمدًا وحسرة ..!

بينما هو مسترسل في حديثه النفسي لاحت في سماء خياله صورة رفاق السفر.. أولئك الشباب الذين تعرف عليهم في السيارة التي أقلتهم من مركز (بدر) إلى (القاهرة) .. ليس أمامه إلا أن يرحل إليهم ؛ فقد يجد في تلك المدينة البعيدة ما لم يجده في مدينته .. قد يجد فيها أنسًا يبدد وحشته ، وأمانًا يزيل خوفه .. ورجاء يقتل يأسه ، وحبًا يغرس في نفسه المقفرة أشجار الأمل .. قد يجد في هجرته إلى تلك الأرض النائية مراغمًا كثيرًا وسعة..

نهض من نومه .. لبس ملابسه .. حمل أوراقه .. اتجه إلى السجل المدني ليستخرج بطاقة الرقم القومي .. ملأ الاستمارة، وأرفق بها المستندات اللازمة ، وقدمها إلى الموظف المختص .. طلب منه الموظف أن يأتي إلى السجل المدني بعد أسبوعين ليتسلم البطاقة.

كان يعد الأيام والليالي ، ويترقب الساعات والدقائق حتى جاء اليوم الموعود ، اليوم الذي سيتسلم فيه البطاقة ليحلق في الفضاء كيف يشاء .. خرج في ذلك اليوم مشرق النفس.. مبتهج الروح ،

يقول في نفسه : ها قد جاءت اللحظة الحاسمة ..! قد جاءت نقطة التحول في حياتي الراكدة ، سأعمل وأعمل حتى أملأ الأرض عرقًا.. سأكافح حتى أنأى بنفسي عن هذا المستنقع الآسن الذي كان سببًا في شقوتي وعذابي.. سأعمل حتى أصل إلى مبتغاي ، لن أضعف .. لن أستسلم مهما قسا الزمان عليّ ، ومهما أغلقت دوني الأبواب .. لابد ـ بإذن الله ومشيئته ـ أن أصل؛ لأنه من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له..!

كانت صدمته أليمة عندما أخبره الموظف المختص أن أوراقه قد ردت إليهم.. فسأله عن السبب ، أخبره بأن شخصًا يحمل نفس الاسم "عاصم فتحي عوض المغربي" قد سجلت بياناته في مركز المعلومات بمحافظة الغربية وحصل على رقم قومي، ولما بحثوا عن اسم الأم وجدوه نفس الاسم (كوثر كمال البهجوري) حتى تاريخ الميلاد هو نفس تاريخ الميلاد ، فردوا أوراقك على اعتبار أنك منتحل شخصية هذا المواطن .

قال "عاصم" له :

ـ ولكنني قدمت أوراقاً صحيحة وموثقة ، البطاقة الشخصية ، والمؤهل وشهادة الخدمة العسكرية ، ومستخرج لشهادة الميلاد ، كل هذه الأوراق مختومة ومعتمدة .. وإذا كان أحدهم ينتحل شخصيتي فما ذنبي؟

قال الموظف :

ـ اسمع يا سيدي .. لا أحد يستطيع أن يستخرج بطاقة الرقم القومي في أي مكان في الجمهورية إلا بعد أن يقدم أوراقه المعتمدة



والتي تراجع مراجعة دقيقة، وعلى هذا فقد يكون ذلك الرجل هو الأصل وأنت المنتحل..!

ـ وما الحل يا سيدي ؟!

ـ الحل أن تبحث عن هذا الرجل وتواجهه بأوراقك وحججك ..!

ـ أبحث عنه بين ثمانين مليون مواطن؟!

ـ لقد قلت لك بأن هذه البيانات مسجلة في محافظة الغربية .

ـ وهل الغربية قرية أو شارع ؟! إنها محافظة تتجاوز سبعة مليون مواطن..

ـ يا أستاذ .. افهمني ..اذهب إلى مركز المعلومات الموجود في طنطا ، واسألهم عن الاسم .. سيخبرونك على الفور بالمركز التابع له وربما القرية أو الحي الذي يقطن فيه .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما هذا الحظ التعس ؟! ماذا فعلت في دنياي حتى أعذب كل هذا العذاب ؟!

وجد "عاصم" نفسه أمام تحديات جديدة تختلف كثيرًا عما جابهه من تحديات فيما مضى من عمره .. وجد نفسه بين أحد أمرين : إما أن يصمد أمام هذه التحدّيات ، ويقلب لها ظهر المِجَنّ ، ويحقق عليها انتصارًا عزيزًا مؤزرًا ، وإما أن يذعن ويستسلم لها، ويلقي بنفسه في مهب ريحها فتعصف به ، ثم تهوي به في مكان سحيق ..!

بالأمس عصفت به تحديات سرقت طفولته ، وسلبت براءته ، وحرمته الأمان والحنان، والمأوى ، والملبس ، والمأكل ، والمشرب

، لكنهـا مـع شـدة قسـوتها لـم تعصـف بوجـوده ، ولـم تسـرق اسـمه وأحلامه وحقه في الحياة ..!

أما التحديات الجديدة فمن نوع مختلف .. تحديات تنفي وجوده ، وتسطو على ماضيه ، وتبدد مستقبله .. عليه إذن أن يصمد صمود الجبال ، ويكون في هذه المعركة أمضى عزيمة ، وأشد استبسالًا.

ولـيس هـذا الأمـر عسـيرًاعليه فهـو الـذي قبـل التحـديات فـي طفولتـه، وكـافح وتعـب ، وحـارب طـواحين الهـواء حتـى حصـل علـى مؤهل رغم حياة البؤس والتشرد والضياع التـي كـان يعيشـها ، ظل يقاوم ويصبر ويصابر حتى غدا شابا فتيا ملء الأسماع والإبصار .. فكيـف بـه الآن ، وقد زادتـه الأيـام حنـــكة ، والمحنُ صلابةً ، وزاده التشرد جرأة وجسارة ؟!

أزمع السفر إلى محافظة الغربية ـ حيث يقطن من ينتحل اسمه ـ كي يخوض معركة يدافع فيها عن اسمه الذي بقي له في هذه الحياة .. وما أشرسها من معركة !! إنـها معركة المصير .. إمـا أن يكـون أو لا يكون ..!

نـهض مـن نومـه مبكـرًا قبـل أن يتسـلل أول شـعاع للشـمس إلـى حجرته من خلال النافذة .. توضأ وصلى الصبح .. ارتـدى ملابسـه .. لملـم أوراقـه ووضـعها داخـل مظـروف ورقـي كبيـر .. أغلـق حجرتـه وولّى وجهه شطر محطة القطار .

سـأل عن القطـار المتجـه إلـى مدينـة (طنطـا) ، أخبـره المسـئول عن صرف التذاكر بأن القطار قد تحرك مغادرًا المحطة منذ دقائق .. سأل عن موعد القطار الثاني ، فأخبره بأنه سيقوم بعد ساعة تقريبًا .. تأفف، وانقبضت أسارير وجهه ، صعد إلى الرصيف .. جلس علـى

إحدى المصاطب الصخرية المعدة للاستراحة ريثما يصل القطار .. ألا ما أطولها من ساعة ..!! وما أبطأ حركات العقارب التي لا تكاد تتحرك..!!

يود لو رُكِّب له جناحان ليطير بهما إلى تلك البلاد النائية التي يلعنها من غير أن يعرفها.. تلك البلاد التي يغتصب أحد أبنائها اسمه وحقه في الحياة ، ويحكم عليه بالتشرد اللانهائي ، والفناء الأبدي .

لم يعد يطيق الجلوس .. يهب واقفًا على قدميه .. يسير إلى آخر الرصيف ثم يعود أدراجه حيث موضع جلوسه .. الحيرة تقتله ، وعقارب الساعة لا تتحرك.. كأنها تقف حداداً عليه ، أو لكأنها تشاركه خوفه من القادم فتأبى المضي قدما ..!

يفكر كثيرًا فيما سيئوول إليه حاله إذا لم يستطع إثبات صحة أوراقه ، إنه لم يعد مطمئنًا إلى شيء ، ولم يعد واثقًا في شيء ، ما الذي يدريه أن الأوراق التي يحملها صحيحة؟! أ ليس من الممكن أن يكون هو المنتحل والمغتصب لهذا الاسم دونما يدري ؟! أ ليس من المحتمل أن يكون الرجل الذي طرده من البيت غريبًا عنه، وادَّعى كذبًا أنه أبوه ، ويكون في هذه الحالة المسئول عن هذا الانتحال ؟!

قد يكون "عاصم" لقيطًا ، لا يُعرف له أم أو أب ، وأراد هذا الرجل أن يتبناه فلما رزق بأطفال من صلبه شعر بأنه قد أصبح في غير حاجة إليه فطرده من بيته، ولكن كيف حصل على هذه الشهادة ، التي تتطابق مع شهادة شخص غيره؟!

أيمكن أن يكون قد سرقها بطريقة ما من أهل صاحب الاسم الحقيقي؟!

ولم لا ؟ إن فيه من الغلظة والقسوة ما يجعله يقدم على ارتكاب أي جرم.

ربما .. كل شيء جائز.. لم يعد هناك شيء مطلق ..!!

كل هذه الوساوس وتلك المخاوف دارت في خلد "عاصم" وهو جالس على الرصيف ينتظر القطار .. مرت الساعة ولم يأت القطار .. سأل أحد الجالسين حوله عن تأخر القطار.. نظر إليه الرجل بريبة ثم قال له :

ـ أهذه أول مرة تركب فيها القطار ؟!

ـ نعم يا سيدي..!

ـ هل تقول الحق؟ أم إنك تمزح؟!

ـ لا يا سيدي بل أقول الحق ..!

ـ يبدو عليك أنك على الفطرة .. اعلم يا بني أنه ما من شيء في هذا البلد يأتي في موعده ، وما من شيء يسير على نظام ، أو يخضع لخطة مرسومة وإنما كل شيء هنا عشوائي .

ـ أفهم من كلامك أن القطار ربما يأتي متأخرًا عن موعده ؟

ـ لا تقل ربما بل الأصل أن لا يأتي في موعده.

ـ هل سيتأخر كثيرًا ؟!

ـ ربما ربع ساعة أو نصف ساعة ، أو ساعة تقريبًا هذا يرجع إلى الحالة النفسية والمزاجية للسائق .



ـ أ ليست هناك رقابة ؟!

ــ كانـت هنـاك رقابـة ولكـن منـذ عشـرات السـنين ، أمـا الآن فالرقابة في كل مكان تغمض عينيها إذا أهدي إليها ما يجعلها راضية ، والشاعر يقول:

وعينُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

لَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَـاوِيَا

شعر "عاصم" أن هذا الرجل يمتلئ حسرة ، وينتظر من يفثأ لوعته ، آثر أن يصمت كيلا يدخل معه في دهاليز الأحاديث التي ربما يتوه في دروبها ، وينسى مقصده الأصلي.. ها هو القطار يأتي من بعيد يصدر أبواق النفير ..

تهلل وجه "عاصم" حينما شعر من داخله أن هذا القطار يحمل إليه أخبارًا سارةً.. أسرع نحوه يغذّ الخطى كأنما يريد هو الآخر أن يحتضنه ليبثه حزنه وشكواه .. التقى الغريبان لأول مرة في حياتهما، القطار لم ير "عاصما" من قبل ، و"عاصم" لم تربطه بالقطار أية وشيجة قربى ، وهذه أول مرة يقترب كل منهما من الآخر، ويراه من قريب.

****

(8)

انطلق القطار كالسهم .. يتمطى ويتلوّى كثعبان بين المزارع والحقول.. القطار من داخله عالم آخر .. الناس فيه طبقتان: طبقة الأغنياء وهؤلاء يجلسون في العربات الأمامية الفاخرة .. مكتوب عليها من الخارج درجة أولى فاخرة .. الركاب في هذه العربات مميزون بثيابهم الأنيقة ، ووجوههم الناضرة اللامعة .. وحركاتهم المصطنعة في بعض الأحيان .. ونظراتهم الاستعلائية للآخرين .. كل واحد يجلس على كرسيه المخصص له ؛ إذ إن كل كرسي يحمل رقما مكتوبًا على التذكرة فلا أحد يجلس مكان الآخر إلا إذا تم بالتراضي بينهم .. لا ترى أحدًا واقفا في الطرقة الفاصلة بين الجناحين .. الكراسي نظيفة ومريحة محشوة بالإسفنج ، والتكييف يعمل بلا توقف.. تشعر وكأنك تجلس في بيتك الراقي أو مكتبك المريح.. الشبابيك موصدة لئلا يتسرب الهواء الساخن من الخارج إلى داخل العربة.. والستائر مسدلة.. والمكان مهيأ لنوم لذيذ لمن أراد النوم .. ومهيأ لقراءة ممتعة لمن يعشق القراءة .. وما أقلهم في هذا الزمان

أما الفقراء فيجلسون في الدرجة العاشرة .. في عربات كتب عليه من الخارج - كذبًا وزورًا - الدرجة الثانية .. عربات صممت خصيصًا للفقراء .. الكراسي إطارها مصنوع من الحديد ومثبت عليه شرائح خشبية بمسامير معدنية غير مشذبة.. لا يكاد الراكب يلتفت يمينًا أو يسارًا حتى يجد هذه المسامير قد مزقت ملابسه .. الشبابيك مفتحة ليل نهار ؛ صيف شتاء ؛ لأنها بمعنى أدق غير موجودة.. الزجاج محطم بفعل فاعل ، والشيش الخشبي غير موجود ..!

الناس مكدسون .. يلتحمون ببعضهم كأنهم كتلة واحدة يسدون المنافذ ويملأون كل الفراغات الموجودة في العربة .. لدرجة أنهم لا يسمحون للهواء الخارجي أن يعبر أو يتسلل إلى داخل القطار..!!

في هذه العربات تتلاحم الأجساد وتختلط الأنفاس ، وتتعالى الأصوات والضحكات ، وبكاء الأطفال ، وأصوات الباعة الجائلين ، ودعاء الشحاذين والمتسولين .. ضجيج في ضجيج .. وطنين.. وأنين.. وصراخ .. وعواء .. وأزيز .. اجتمعت كل هذه الأصوات فشكلت سيمفونية شاذة منفرة .

الوجوه مكفهرة عابسة .. والملابس مهترئة وغير متناسقة .. وروائح العرق تتصاعد في سماء العربات فلا تجد لها مخرجًا فترتد ثانية إلى الأنوف ، فيزيد الامتعاض والتأفف ..!

في مثل هذا الزحام ، وذلك الجو الخانق تكثر السرقات.. فقير يسرق من هو أشد منه فقرًا..! وشحاذ يستجدي ممن هو أحق منه بالاستجداء..!

وفي مثل هذا الجو المشحون بالغضب والضيق يكثر الشجار لأسباب تافهة كأن كل راكب لا يطيق الآخر ، كل واحد لديه من المنغصات ما يكفيه ..!

ورغم هذا الجو المفعم بالألغام الموقوتة تنظر حولك فتجد شابًّا رومانسيًّا يهيم بفتاة واقفة حياله يغازلها بنظراته .. بهمساته .. بلفتاته .. بالصمت الرهيب ، وشابًا آخر يستعرض فتوته وعضلاته على أقرانه وغير أقرانه ، وشابًا يستعرض لباقته في الحديث ، وآخر يستعرض خفة دمه بالنكت التي يرسلها إرسالًا ، وشابا يرسل بصره عبر نافذة القطار يتأمل المزارع والحقول ، ويهيم بالطبيعة

الغناء ، ورجلا يقرأ في صحيفة لا يبالي بما يحدث حوله ، كلما انتقل من خبر إلى خبر يقطب جبينه ، ويطلق زفرات طويلة مفعمة بالأسى ، وشابًا قابعًا يقرأ في المصحف بصوت مرتفع يريد أن يعلو صوت القرآن على كل هذه الأصوات ، وليته يقرأ قراءة صحيحة أو ليته يتمتع بصوت جميل ، وآخر يسب الحياة ، ويسب المعيشة ، ويسب الغلاء ، ويلعن الفقر .

هذه العربات بما يحدث فيها نموذج مصغر لما يحدث في الطبقات الكادحة تلك الطبقات التي لا يعرف "عاصم" سواها .. كان جالسًا كالضيف يتأمل كل ما يحدث حوله في انبهار .. إذ إنه لأول مرة يركب القطار، ولأول مرة يرى هذا الحشد الهائل محشورًا معه في خندق معدني يتحرك بهم.

كان قلقا، يخشى أن تفوته المحطة التي يقصدها ؛ لهذا كان يسأل عنها كلما توقف القطار في محطة من المحطات، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن طمأنه أحد الركاب حين أخبره بأنه سينزل في نفس المحطة التي يسأل عنها ، فلما استعد هذا الرجل للنزول نظر إليه "عاصم"، فأومأ إليه الرجل بأن المحطة القادمة هي المحطة التي يريدها..!

قطع القطار المسافة الواقعة بين (القاهرة) و(طنطا) في ساعة ونصف تقريبًا..

كانت الساعة - حين هبط مدينة (طنطا) - تقارب العاشرة صباحًا .. هبط السلم وخرج من النفق الموجود تحت المحطة .. سأل أحد المارة عن مركز المعلومات ، أخبره بأنه في نهاية شارع الجيش.. لم يستطع أن يستأجر سيارة أجرة (تاكسي) بسبب قلة ما

معه من نقود .. قرر أن يمشي هذه المسافة على قدميه ، وكلما وصل إلى منعطف ، أو ميدان ، أو تقاطع ، يسأل المارة على نهاية شارع الجيش ، فيصفون له الطريق ، فيظل ماشيًا حتى وصل إلى آخر الطريق، سأل أحد أصحاب المحلات عن مركز المعلومات، فأخبره أنه في شارع المديرية .. ظل يمشي ويسأل حتى وجد نفسه أمام مركز المعلومات على بعد مائة متر فقط من محطة القطار.. أيقن أن الغريب أعمى، وأن هناك أناسًا مضللون يفتون بغير علم ، وعليه ألا يصدق كل ما يقال ، وأن يستشير أكثر من واحد إذا جهل أمرًا.

وقف في الطابور ينتظر دوره حتى وصل إلى الشباك بعد عناء وكبد، شرح ظروفه للموظف .. نصحه الموظف بأن يدخل إلى مدير المركز ، ويعرض عليه حالته .. قص حكايته على المدير ، فتعاطف معه ، وقام بنفسه يبحث عن بيانات صاحب هذا الاسم المشابه لاسم "عاصم" .. وبعد لحظات أخبره أن صاحب هذا الإسم يقطن في قرية تابعة لمركز السنطة.. سأله عاصم عن كيفية الوصول إليها، استدعى المدير أحد الموظفين التابعين في محل إقامتهم لمركز السنطة ، وسأله عن هذه القرية وكيفية الوصول إليها .. وصف له الموظف المكان الذي توجد به سيارات تنقل الركاب إلى هذه القرية .. شكر "عاصم" هذا الموظف، وتوجه بالثناء الجزيل لمدير المركز على حسن تعاونه، ومساعدته إياه ..

ركب "عاصم" السيارة المتجهة إلى تلك القرية ، وقلبه يدق دقات عنيفة .. لابد أن يستعد للمعركة الشرسة .. إنه الصراع من أجل البقاء ، جلس يفكر.. كيف تكون البداية..؟ وعلام تسفر هذه المعركة ؟!

يسأل نفسه : ماذا لو كان الحق مع غريمه ؟ هل يستسلم ويعود أدراجه ، ويظل متقوقعًا تحت أكوام القمامة يبحث عن كسرة خبز يلتهمها ، أو قشرة موز أو برتقال أو بطيخ ينحتها ؟! أم يصمد أمام غريمه ، ويظل يقرع الحجة بالحجة ، وإن لزم الأمر شجارًا يكون على أهبة الاستعداد له ؟ ولكن .. كيف يتشاجر في بلد ليس له فيها أهل ولا أصحاب ولا عزوة؟!

أليس من الحمق أن يفكر في تشابك بالأيدي وهو الوحيد الغريب؟! ما الحل إذن ؟!

لقد استطاع أن يتحدى العوائق ، ويصمد أمام المحن العاتية ، والأزمات الطاحنة التي كانت تعرض له فيما مضى ليوجد لنفسه مكانًا بين أولاد الناس المحترمين ، أليس من حقه أن يحيا حياة كريمة ؟! أليس من حقه أن يعيش في شقة كبقية المواطنين ، وأن يتزوج ، وأن ينجب ، وأن يكون مسئولًا عن رعيته ؟!

إنهم يسرقون منه هذا المكان الذي ذاق في سبيل تحقيقه وإيجاده مرارة الحرمان ، وقسوة الأيام، وضربات القدر ، وذل الغربة ..!

ترى من هؤلاء الأوغاد الغلاظ الذين أطلوا عليه فجأة من سجف الغيب ليهدموا أحلامه الغضة ، وليجتثوا بكل وحشية وقسوة نبتة أمانيه المورقة ؟!

ماذا فعل لهم حتى يجد منهم كل هذه القسوة ؟!

لم يبق أمامه باب يلجأ إليه في هذه المحنة سوى باب مولاه وخالقه ورازقه الذي لا يلجأ إليه مستنصر إلا نصره ، ولا مستغفر إلا غفر له ، ولا مكروب إلا أزال همه وفرّج عنه كربته .. !

يا رب ..! قالها من أعماقه حينما وطئت أقدامه ثرى هذه القرية لأول مرة ، رددها ثانية بتضرع وهو يسير في شوارعها: يا رب .. ليس لي رب سواك ، لا تردني يا إلهي خائبا.. قف إلى جوار عبدك الضعيف .. يا ناصر الضعفاء .. يا مجير المستجيرين .. افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين..!!

طفق يسأل ويسأل ولكن أحدًا لم يعرف صاحب هذا الاسم .. ليس مشهورًا أو معلومًا عند أهل القرية .. بدأ يشعر بالطمأنينة بعض الشيء فهذا مؤشر على أن منتحل هذا الاسم له اسم آخر غير هذا الاسم المزيف.. لاحت لعقله فكرة .. قرر ألا يسأل إلا من هم في مثل عمره ؛ لأنه لو كان له اسمان فأقرانه هم أقرب الناس إلى معرفة صاحب هذا الاسم بحكم الصداقة أو الزمالة في الدراسة أو بحكم اللهو واللعب في أيام الطفولة والصبا .

كان ينتقي من يسأله عن صاحبه الذي لا يعرفه حتى تأكد من أن هذا الشخص المراد له اسمان .. اسم حقيقي كان يعرف به في المدرسة وهو صغير وهو "عاصم" واسم شهره يعرف به في القرية باسم "إيهاب الزغبي" فطلب من بعض الشباب أن يرشدوه إلى بيت "إيهاب" هذا ، فأخذه أحدهم إلى المكان ، ودله على البيت .

*****

(9)

وصل عاصم أمام البيت في وقت الأصيل كانت الشمس هادئـة ناعمة ترسل أشعتها الذهبية على أسطح المنـازل القرويـة المتواضعة فتبعث في النفس صفاء يصحبه الحنـين ، ونسيم الأصيل يتبختر فـي الشوارع .. يلثم الوجوه في رقة وحنان، ثم يتصاعد ليداعب غصون الأشجار فتهتز فرحا.. يا له من جو شاعري خلاب يسحر الألبـاب .. ولكن أنَّـى لعاصم أن يشعر بهذه الطبيعـة السـاحرة مـن حولـه وهـو المهموم والمكروب ..؟!

كيف له أن ينصت لغناء الطير الذي لـم يسمعه قط فـي المدينـة وهو المتوقع حدوث الكارثة في كل وقت وحين ؟!

قرع الباب .. خرج إليه شاب في مثل عمره تقريبا ، وفي نفس ملامحه وتقاسيم وجهه، نظر إليه وقال له :

ـ أريد مقابلة الأستاذ "عاصم فتحي عوض المغربي".

نظر إليه بدهشة وقال :

ـ ومن أنت ؟

ـ أنا غريب .

ـ ولماذا تريد "عاصم" هل تعرفه؟

ـ لا .. ولكني أريد أن أقابله لأمر ضروري.

ـ وما هذا الأمر الضروري ؟

ـ هل والدك موجود ؟

ـ هل تريد عاصما أم تريد والده ؟

ـ في الحقيقة أريدهما معًا.

ـ ولماذا تريدهما معا ؟!

بدت على وجه"عاصم"علامات الغضب ، وقال بصوت مرتفع :

ـ يا أستاذ .. أنا قادم إليكم من (القاهرة) ، وقد تعبت وذقت الأمرين حتى وصلت إلى هذا المكان .. ما جئت إلى هنا لألهو في الحديث معك ، أو لنتبارى في عرض الأحاجي والألغاز ..!

سمع الأب صوت الضيف يعلو، فنهض على الفور، خرج ليتبين من بالباب، نظر الرجل إلى "عاصم" ، وحدق في وجهه طويلا ، ثم قال بلطف:

ـ تفضل يا بني .. ألا تذكرني ؟!

نظر إليه "عاصم" نظرة فاحصة ، فتذكره على الفور ، وقال له بعد أن انفرجت أساريره:

ـ نعم أذكرك .. أنت السائق الذي ركبت معه يوم أن أنهيت خدمتي، ولم يأخذ مني الأجرة .

ـ نعم يا بني .. أنا ذلك السائق .

فتح الرجل ذراعيه ليحتضنه ، وكأنما كان "عاصم" ينتظر مثل هذه الفرصة فارتمى في أحضان هذا الرجل الطيب وجعل يبكي.. هدّأ

الرجل من ثورته، وأخذه من يده وأدخله البيت.. كان البيت صغيرًا متواضعًا مكوّنًا من حجرتين صغيرتين ، وصالة تضيق بما فيها .. منضدة خشبية عتيقة ..استقر فوقها تلفاز من نوع قديم أبيض وأسود ، وطاقم صالون خربته يد الزمن ، لم يبق منه غير هيكله القديم المتهالك، كل ما حوله من أثاث وغيره يدل على فقر مدقع .. لكنه بحال من الأحوال أفضل بكثير مما هو موجود في حجرة "عاصم"..!

قال الرجل الطيب :

ـ كان لديّ إحساس قوي في رؤيتك مرة ثانية .

ـ القلوب عند بعضها يا سيدي ، ولكن أنا ..

قاطعه الرجل قائلا :

ـ لكنني أتعجب كيف وصلت إلى هنا مع أنني لم أخبرك باسمي، ولم أعطك عنواني؟!

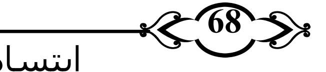
ـ الحق يا سيدي أنني جئت إلى هنا دون أن أعرف أنك صاحب هذا البيت.

ـ إذن أنت جئت لأمر آخر ؟

ـ نعم يا سيدي .. مع أنني كنت أتمنى أن آتي لرؤيتك خصيصًا.

ـ وما هذا الأمر ؟ أتحتاج إلى أي نوع من أنواع المساعدة ؟

ـ بالطبع أحتاج إلى مساعدتك في أمر خطير .. أمر يخصني ويخص ابنك.



ـ وما هذا الأمر الخطير الذي يخصكما رغم أن كليكما لا يعرف الآخر ؟!

ـ لو عرفت قصتي لأدركت ما جئت من أجله .

ـ وما هي قصتك ؟!

ـ أنا يا سيدي ـ كما قلت لك سابقاً ـ من (القاهرة) ، نشأت يتيم الأم.. تزوج أبي بعد وفاة أمي .. عاملتني زوجته بكل قسوة .. انظر إلى يدي.. انظر إلى ذراعي.. انظر إلى ساقي، وكتفي..

ـ ما هذا يا ولدي ؟!.. إنها آثار جروح وحروق قديمة..!

ـ نعم .. كانت تحرقني ، وتهددني إذا أخبرت أبي ، ولم تكتف بذلك بل كانت تتصنع البكاء عند عودته ، وتدعي أني أسبها ، وأقذفها بالحجارة.. كان يصدقها ويكذبني، فيضربني ويحبسني في حجرة مظلمة ، وذات يوم ادّعت عليّ كذبا أني خنقت ابنها مع أنها تعلم أني كنت أقبّله ، وادّعت بأنني سرقت حافظة النقود الخاصة بأبي، ومنذ هذه اللحظة وأنا مطرود في الشارع ، كان عمري حينئذٍ ثماني سنوات، قضيت سبعة أعوام في الشارع أبحث عما يقيم صلبي ، ويسد جوعي في أكوام القمامة ، فإذا ما جنّ عليّ الليل أنام في مكاني ، في الصباح يأتي عمال النظافة يضربونني ويهددونني إن أنا نمت في هذا المكان ثانية سيقومون بتسليمي إلى الشرطة ، فأظل أبحث عن مكان حتى يهدني البحث ، فأنام حيث يصيبني الإعياء ، ويبلغ مني الجهد مبلغه ، وبعد سبعة أعوام .. وجدت أنني أصبحت شابا لا يصح أن أنام على الأرصفة ، وفي الشوارع ، وأمام المساجد فعدت إليه فطردني ثانية ، استأجرت حجرة لأعود إليها آخر الليل.. حجرة تقيني حر الصيف وبرد الشتاء ، وتسترني من التكشف أمام

الناس ، ظللت على هذا الحال حتى ذهبت إلى الجيش لأقضي الخدمة الإلزامية ، وكان يوم أن قابلتني آخر يوم لي في الجيش .. قررت أن أسافر إلى مدينة (شرم الشيخ) أو مدينة (الغردقة) لأعمل هناك فكان لابد أن أستخرج بطاقة الرقم القومي ، وعندما ذهبت لأستخرجها ، فوجئت بأن هناك شخص يحمل نفس الاسم قد سبقني واستخرج بطاقة له ، ولما تتبعت هذا الشخص وجدته هنا في بيتكم ..

ـ هنا في بيتي ؟!

ـ نعم ..!

ـ من ؟ تقصد "عاصم" ؟!

ـ نعم يا سيدي .

ـ أنا لا أصدق .. هل اسمك "عاصم فتحي عوض المغربي" ؟

ـ نعم يا سيدي ..!

ـ لابد أن اسم الأم يختلف ؟

ـ مع الأسف .. هو نفس الاسم وهذا ما يجعلني في حيرة من أمري..!

ـ تعني أن اسم والدتك : "كوثر ..." ؟

قاطعه "عاصم" متمما الاسم :

ـ نعم يا سيدي .. اسمها : "كوثر كمال البهجوري".

ـ سبحان الله .. !

ـ وأين أعمامك وأخوالك .. ؟ لماذا لم تذهب إليهم ؟

ـ والدي كان وحيد أمه وأبيه فليس لي أعمام ، أما أخوالي فكل ما أعرفه عنهم أنهم موجودون في محافظة المنوفية لكن أين ؟ لا أعرف ..

ـ هل معك أوراق تثبت صحة كلامك ؟

ـ نعم .. معي البطاقة الورقية ، وشهادة الميلاد ، وشهادة المعاملة العسكرية، وشهادة الدبلوم .

تعجب الرجل وسأله:

ـ شهادة الدبلوم .. هل حصلت على دبلوم وأنت في هذه الظروف ؟!

ـ نعم .. ساعدني أحد الرجال الطيبين حتى توفاه الله وأنا في المرحلة الإعدادية ، فأخذت عهدًا على نفسي أن أواصل المشوار حتى أحصل على مؤهل حتى وإن كان متوسطا .

ـ بارك الله فيك يا ولدي .. إن ابني "عاصم" لم يستطع الحصول على هذا المؤهل رغم أني وفرت له كل الظروف الملائمة .

كانت الزوجة في المطبخ تعد الشاي للضيف ، سمعت الحوار كاملا.. ذرفت عيناها الدموع.. لم تتمالك أعصابها .. سقط البراد من يدها ، فخرجت على الفور لترى هذا الضيف المسكين ، فما إن وقع بصرها عليه حتى رق له قلبها ، وخفق خفقة شديدة ، فسألته :

ـ ما اسم زوجة أبيك ؟

أجاب "عاصم" :

ـ اسمها "نعيمة" ؟!

لم تشعر المرأة بنفسها فأقبلت نحوه، وأكبت بجسدها عليه ، وهي تصرخ بأعلى صوتها :

ـ مستحيل .. أمعقول ؟ ابني .. ابني .. حبيبي .. ضنايا .. أنا لا أصدق عيني .. كنت متأكدة بأنك ما زلت على قيد الحياة .. قلبي لا يكذب عليّ أبداً.. ألف حمد وشكر لك يا رب .

وقف عاصم واجماً ذاهلًا شاردًا ، لا يعرف كيف يتصرف إزاء هذه المرأة التي ارتمت عليه ، ولا تزال تحتضنه بقوة كأنها التحمت به.. أسقط في يدي زوجها وابنها ووقفا ذاهلَيْن ، وخرج أولادها الصغار يترقبون ما يحدث كأنهم في حلم غريب .. خرست الألسنة .. واغرورقت أعينهم بالدموع .. لا يزالون جميعًا في حالة من الصمت والذهول .. ماذا حدث للمرأة ؟ هل جن جنونها ؟ هل تأثرت بالقصة إلى هذه الدرجة ؟!

بعد حين هدأت ثورة الزوجة .. سكنت حركات جوارحها .. سجدت شكرا لله الذي أعاد إليها ولدها بعد خمسة وعشرين عامًا ..!

سألها زوجها :

ـ ما بكِ يا أم "عاصم" ؟

ـ هذا ابني يا أبا "سعيد" .. قد رده الله إليّ .

ـ كيف يكون ابنك ؟

ـ إنها حكاية طويلة ..!

ـ ونحن في شوق إلى سماعها .

ـ اسمع يا أبا "سعيد" .. لقد تزوجت هذا الرجل منذ ستة وعشرين عاما ، وكنا في قرية من قرى المنوفية ، كنا نعيش حياة هادئة حتى ظهرت "نعيمة" التي كانت تخدم في البيوت الراقية في القاهرة ، وتعود إلى أهلها في القرية كل شهر تقريبا .. كانت جميلة لكنها سيئة الخلق والسمعة.. تعرف عليها زوجي وكان منبهرًا بها مشدوداً إليها .. شاغلته حتى لم يعد يطيق النظر في وجهي ، كان يضربني ويذلني وكنت أتحمل حتى لا يقال بأنني لست أهلا للزواج والمعيشة ، وعندما رزقني الله بهذين الولدين في بطن واحدة ، حمدت الله وقلت في نفسي الآن أصبح أبًا وأصبح مسئولًا ، لكنه ازداد غلظة وازداد قسوة ، فأمعن في إذلالي..

وبعد الولادة بأسبوع وجدتني غير قادرة على التحمل فأخذت أحد الطفلين وذهبت إلى بيت أبي.. كنت أظن أن هذا الطفل سيكون وسيلتي للضغط عليه كي يعيدني إلى بيت الزوجية انتظرت أسبوعًا في بيت أبي ولما لم يرسل في طلبي ذهبت بنفسي إلى بيته لآخذ طفلي الثاني الذي حرمت منه مدة أسبوع ، لكنه مثَّل عليّ واصطنع البكاء وأخبرني أن الطفل قد مات .. صدقته ، ورجوته أن أعود إلى بيته حتى يتربى الطفل الثاني بيننا ، لكنه فاجأني حين رأيته يلقى عليّ يمين الطلاق.. أخذت ابني وعدت إلى بيت أبي ، وبعد أن هدأت أعصابي ذهبت إلى الوحدة الصحية وسميت الطفل الذي بقي معي "عاصم" .

بعد فترة قصيرة علمت أنه تزوج "نعيمة" ، وانتقل بها إلى القاهرة ، ومنذ ذلك الحين انقطعت عني أخباره ، وظللت في بيت أبي حتى جئت إلى قريتنا ورأيتني وعلمت أني مطلقة ومعي ولد، فطلبت يدي من والدي وتزوجتني ، وانتقلت معك إلى هنا ومعي ابني "عاصم".

ـ وكيف حدث التطابق في اسم الطفلين ؟

ـ يبدو أنه سمّى الطفل الثاني بنفس الاسم من غير قصد ، لم يكن يعرف أني سميت "عاصما" .. لقد ألهمه الله هذا الاسم حتى يعود إليّ ولدي في يوم من الأيام ، أرأيتم لو كان سماه باسم آخر غير "عاصم" أكان بإمكاني أن أراه ؟! لا أظن إنها رحمة الله بي وبولدي المسكين .. ورب ضارة نافعة ..فها هو ولدي الثاني يعود إلى حضني ، وإلى حناني الذي حرم منه طوال عمره .. نشكرك على نعمك يا رب.. يا مسبب الأسباب ، ومدبر الأقدار.. أحمدك على أن رددت إليَّ ولدي بعد طول غياب ..!

احتضن "عاصم" أمه بعد أن سمع حكايتها ، وأخذ يقبل يدها ورأسها وهو يبكي ويحمد الله على أنها مازالت على قيد الحياة ، وأنه ما تزال أمامه الفرصة لأن يبرها ويرعاها، طفق إخوته لأمه "سعيد" و"نوال" و"صفاء" يرتمون على أخيهم "عاصم" يقبلونه فرحين مسرورين بعودة أخيهم المفقود ، هنأه أخوه "إيهاب" المسمى في الأوراق الرسمية "عاصم" على سلامة العودة ، واحتضنه الرجل الطيب الحاج "محمد الزغبي" وقال له :

ـ أتذكر يا "عاصم" يوم أن التقيت بك لأول مرة عند (البريجات) وركبت معي السيارة ؟!

ـ نعم أذكر .

ـ كنت أنظر إليك فكأني أنظر إلى أخيك ، فأقول : سبحان الله .. يخلق من الشبه أربعين..!

لو كنت قصصت عليّ قصتك ، أو عرفتني بنفسك لأخذتك معي على الفور .. كنت أسألك هل لك إخوة أشقاء؟ لأني رأيتك تشبه أخاك شبها يلفت الانتباه ..!

ـ ما كنت أعرف أن لي شقيق ، وما كنت أعرف أن أمي لا تزال على قيد الحياة.

ـ على كل حال قدر الله وما شاء فعل .. لن ترى يا ولدي ذلاًّ بعد اليوم.. سنحاول أن نعوضك عما فاتك ، وسأكون لك نعم الأب .. وهذه عائلتك انعم فيها بالدفء الذي حرمت منه.

ـ أشكرك يا أبي .. على حسن رعايتك لأمي وحسن تربيتك لإخوتي، وأدعو الله أن يعينني على رد جميلك الطيب .

جلس "عاصم" بين أفراد عائلته لأول مرة ، في هدوء لا ينغِّصه ضجيج، وصفاء لا يعتريه قلق ، وأمان لا يشوبه خوف .. يجلس معهم في براءة الأطفال وإحساس الضيف .. يفكر في وضعه الجديد ، ويتذكر الأيام الخوالي ، لم يكن يحلم في يوم من الأيام أن يلتقي بأهله ، لم تساوره نفسه أو شكوكه قط في أن أمه مازالت على قيد الحياة ، إن أعظم المنح التي خبأها له القدر هذه الأم الرحيمة ، وهذه العائلة الكريمة التي طالما تمنى عائلة مثلها لينعم في كنفها بالدفء الأسري.

ظل يقص على إخوته بعض حكاياته ومغامراته ، وهم يتابعونه في شغف ، تلمع عيونهم ، وتتحدر دموعهم على وجناتهم أسفًا على ما ذاقه أخوهم من ألوان البؤس والحرمان.. ثم يتذكرون أنه الآن أصبح معهم فيسعدون ويتضاحكون.

****

(10)

مجتمـع القريـة يختلـف كثيـرًا عـن مجتمـع المدينـة .. رغـم أن الـهيكل التخطيطي للقرية أصبح يشبه إلى حد كبير هيكل المدينة .. في المباني؛ فلم تعد في القرية بيوت من الطوب اللبن كما كان العهد بها قبـل عشـرين عامًـا ، والشـوارع فـي القريـة قـد خضـعت للتنظـيم وأصـبحت أكثـر اتسـاعًا ممـا كانـت عليـه مـن قبـل ، كمـا أن دخـول الكهرباء ، والمياه، والصرف الصحي، ووجود المحلات ، والـورش ، وبعض المصانع الصغيرة جعل القرية تشبه المدينة إلى حد ما .. لكن يظل هناك فارق بين سكان القرية وعاداتهم وسكان المدينة وتقاليدهم ..!

صحيح أن فـي الآونـة الأخيرة اختلفت بعض طبـاع النـاس فـي القرية عمـا كانـت عليـه مـن قبل ، لكن يظل هنـاك اختلاف كبيـر بـين طبـائع القـرويين المتسـمة بالطيبـة والتحـاب والتـواد والسـماحة والتعاون والترابط والتمسك بالقيم والأخلاق الأصيلة، وبين طباع أهل المدينــة المعروفـة بالجفـاء، والتفكـك، والتحلـل مـن بعـض القـيم ، والانطواء والتشرذم ، ولعل البيئة بما تحمله من عوامل متعددة هـي التي أثرت في تغير الطبائع بين أهل المدينة وأهل القريـة .. وبـالطبع في كل مجتمع أناس لا يندرجون تحت هذا التصنيف ، فقد تجد أناسًـا في الريف يتصفون بالانطواء والرغبـة فـي العزلـة ، وتجد فيـه أيضًـا أناساً جبلـوا علـى التفكك والتحلـل مـن القـيم ، وقـد تجد العكـس فـي المدينـة وهذا من القليل ، فلكل قاعدة شواذّ.. !!

لكن في الأعم الأغلب .. الناس في المدينة مغلقون على أنفسهم.. شبه غرباء أو هم في الحقيقة غرباء .. جاءوا من أصقاع شتى، ومحافظات متنوعة، وبيئات متباينة وغير متجانسة، لذا ترى الجار لا يعرف جاره ، ولا يهتم أحد لأخبار أحد.. كل فرد مهموم بمشكلاته.. يجري وراء لقمة العيش يلتقطها أنَّى وجدها ..!

الزحام ، وسرعة الحياة ، والهواء الملوث ، وارتفاع الأسعار ، وضجيج السيارات .. كل هذه الأشياء جعلت الناس في حركة دائبة ، وشغل شاغل ، وأعصاب متوترة ، ونفوس غاضبة .. ووجوه عابسة مكفهرة.. يمرون على البؤساء والضعفاء والفقراء وأبناء السبيل فلا يروعهم منظرهم ، ولا يرثون لحالهم، ولا ينصتون لشكواهم .. العيون جامدة ، والقلوب جاحدة ، والأفواه مكممة ، والآذان مصطلمة.. إلا من رحم ربي.. وقليل ما هم ..!!

أما في القرية فالحياة مختلفة نوعًا ما .. المجتمع مكون من عائلات معروفة تقطن القرية منذ مئات السنين ، وتنصهر هذه العائلات في بوتقة واحدة عن طريق الزواج ، فتتشابك العلاقات، وتصبح القرية كالعائلة الواحدة إلا بعض الغرباء الذين وفدوا عليها هاربين من الثأر، أو هاربين من أحكام قضائية عليهم ، أو هاربين من الفقر المدقع .. لكنهم يظلون معروفين لأهالي القرية، ولأنهم لا يمتلكون بيتًا أو أرضًا أو نسبًا تجد سكان القرية يدفعون إليهم زكاة زروعهم ، ويساعدونهم في أحوالهم المعيشية حتى يصير لهم بيوت كبيوتهم ، ومع مرور الزمن ينسى الناس الأصل ، ويصبح هؤلاء الغرباء سكانا أصليين ، يمتزجون بالعائلات الأصيلة ويحدث الانصهار.

البراح والفراغ .. وبطء الحياة .. وجمال الطبيعة .. والهواء النقي .. والخضرة الممتدة إلى منتهى البصر .. والشمس الضاحكة .. والنسيم العليل .. وأهازيج الطيور .. والهدوء اللذيذ.. كل هذا يجعل الناس في القرية ـ إلا القليل منهم ـ يتمتعون بحس مرهف ، وأخلاق نبيلة .. يتزاورون ، ويتضاحكون ، ويفرحون إذا جمعتهم الأفراح ، ويحزنون .. ويتألمون إذا جمعتهم المآتم والأحزان.

إذا اشتكى رجل في آخر القرية تداعى له الرجال في سائر القرية .. يسألون عن أخبار بعضهم لدرجة أنك إذا سألت واحدًا يقطن في أول القرية عن شخص يقطن في آخرها لأخبرك عن تفاصيل حياته .. مجتمع مترابط متماسك إذا ما قيس بمجتمع المدينة ..!

هذا ما ساعد على انتشار قصة "عاصم" بين أهالي القرية انتشار النار في الهشيم .. فما كاد يمر يوم أو يومان على وجود "عاصم" بين أهله حتى علمت القرية قصته، وتناقلتها الألسنة لا سيما وأن أهله غرباء عن القرية.. !

نعم .. لقد كان زوج أمه غريبًا عن القرية ، وأتي بزوجته والولد الأكبر توأم "عاصم" والمسمى على اسمه منذ بضعة وعشرين عاما ، واستأجر حجرة صغيرة ، وأنجب أولاده هنا في هذه القرية .. فكان أهل القرية يساعدونه حتى استطاع أن يشتري هذه المساحة الصغيرة التي لا تزيد عن ستين مترًا مربعًا تقريبًا ..

هذا الرجل الطيب يعمل سائقًا على سيارة نصف نقل عند صاحب شركة للألبان ، كان ينفق جزءًا من أجرته على أولاده وجزءًا يوفره حتى تمكن من بناء هذا البيت المتواضع، والحقيقة أنه لم يكن يفرق في المعاملة بين ابن زوجته وبين أبنائه ، كان يعاملهم جميعا

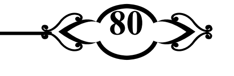
معاملة واحدة ، وحاول جاهدًا أن يساعد "إيهاب" ابن زوجته كي يحصل على مؤهل دراسي يعينه في الحياة لكنه لم يكن لديه استعداد .. فآثر الخروج من الدراسة برغبته ، وجعل يعمل كي يساعد زوج أمه في تربية إخوته ورعاية أمه .

وصلت القصة إلى مسامع أحد الصحفيين فرأى فيها فرصة لجذب القراء إلى الصحيفة التي يعمل بها فنشر قصة "عاصم" .. جذبت القصة انتباه الناس ، وأظهروا تعاطفهم نحو هذا الشاب المسكين الذي انتصر على حياة الضياع والتشرد ولم يستسلم لإغراءات المنحرفين من زملائه ، ولم يستسلم لليأس، ولم يعرف طريق الفشل، ولكن صبره ورغبته في المقاومة، وإثبات ذاته هو الذي جعله ينتصر، ويصل إلى أمه وإخوته بعد سنوات الغربة التي قضاها تحت الأرجل..!

استضافه أحد المذيعين في برنامج شهير يهتم بقضايا المجتمع في إحدى القنوات الفضائية ، وطلب منه أن يقص حكايته بالتفصيل أمام الكاميرا عسى أن يمد إليه أحد الأغنياء يد المساعدة ، و يدبر له عملا يقتات منه ، أو يراه أحد المسئولين فيحل له لغز تطابق اسمه مع أخيه حتى يتمكن من استخراج بطاقة للرقم القومي .

اتصل أحد المسئولين على هاتف البرنامج ، وأخبره بأن تغيير اسم أخيه أسهل من تغيير اسمه وخصوصا أن أخاه معروف باسم "إيهاب" ، كما أنه لا يحمل شهادة مؤهل، فالتغيير في أوراقه أسهل من التغيير في أوراق "عاصم"..

وبعد لحظات استقبل مذيع البرنامج اتصالًا هاتفيًا من أحد رجال الأعمال الذين يتابعون البرنامج، وعرض مساعدته لهذين الشابين



بتوفير فرصتيّ عمل لهما في إحدى شركاته ، وقع الخبر على قلب "عاصم" موقع الماء من ذي الغلة الصادي .. فانتشى فرحًا لأن مشكلة الاسم قد حلت ، وكذلك مشكلة العمل .. !

حصل من "الكنترول" على عنوان رجل الأعمال ، وهاتف المسئول .. وخرج من مبنى القناة وليس على الأرض من هو أسعد منه حالًا ، وأهنأ منه بالًا .

*****

(11)

في صباح يوم مشرق متفتح بهيج .. خرج "عاصم" ومعه أخوه "إيهاب" من القرية يحملان أوراقهما، ويتجهان معًا إلى محطة القطار ليستقلا القطار المتجه إلى مدينة القاهرة ، ومنها ينتقلان إلى مقر شركات رجل الأعمال "شاكر البنهاوي" في مدينة السادس من أكتوبر، تلك المدينة التي يبدو أن القدر يدّخر لهما فيها نصيبًا غير معلوم.. !

تُرى أيكون نصيبًا رغيدًا يعوضهما عن سنوات الجدب وآلام الفقر، وينسيهما حرقة الصد ومرارة الهجر ؟! أم إنه الحظ التعس الذي لا يعرفان ولا يألفان من الحظوظ سواه ؟!

قسمات وجه "عاصم" تنم عن تفاؤل عظيم ، وعن إحساس داخلي بأن ما هو آتٍ خير مما مضى.. لم يعد يخشى الحياة .. ليس هناك ما هو أفظع من الحياة التي عاشها .. لم يعد يرهب الغيب ، بل إن لسان حاله ليقول: ليت ما في الغيب يأتي، لم يعد يرى الكآبة ـ كما كان يراها من قبل ـ تسد الأفق .. !

لقد أضحى ـ منذ التقى بأهله ـ في حالة من النشوة والسعادة غامرة.. كل شيء أصبح في عينيه جميلًا .. الوجوه المكفهرة العابسة التي كان يراها من قبل انقلبت فجأة إلى وجوه متهللة مشرقة باسمة ، ما كان يسمع من أصوات الطيور إلا نعيب البوم ، والغربان .. أما وقد وجد أهله ، وسرى الأمان والاطمئنان إلى نفسه فقد غدا يتطرق إلى سمعه أصوات أخرى غير التي ألفها ، أصوات تطرب

النفس وتشنف الآذان ، لقد أصبح يرهف السمع لشقشقة العصافير، وهديل الحمائم ، وتغريد البلابل ، وصدح الكروان .

ها هي الجنة الكبرى التي كان يصبو إليها .. تفتح له ذراعيها لتضمه إليها كي تسبغ عليه الأمان الذي طالما افتقده ، والحنان الذي طالما هفا إليه.. لم يكن يحلم بأكثر مما هو فيه الآن ، من بيت وإن كان صغيرًا ، وإخوة يحبهم ويحبونه ، ويأنس إليهم ويأنسون إليه ، وأم حنونة تصب على قلبه الحنان صبًّا ، وأب رحيم وإن كان زوج أمه يعيش في كنفه ، ويشعر بالطمأنينة في رحابه ..!!

إنه الدفء الأسري الذي طالما حرم منه .. ما كان يأمل من دنياه غيره .. وما كان يرجو منها إلا العمل الشريف الذي يعطيه قدرًا من الاحترام والطمأنينة ، وها هو ذا في طريقه إليه ..!!

إنه لا يحتاج العمل ليزهو ويتعالى به على الخلائق ، وإنما يحتاجه لأنه اعتاد ألا يأكل إلا من كسب يده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ففي عقله أفكار وأفكار في مجال تخصصه كانت تنتظر فرصة خروجها إلى حيز التنفيذ، ولا سبيل إلى ذلك إلا العمل.

لم يكد يهبط القاهرة ، ويستنشق هواءها حتى هاجت في قلبه الذكرى.. ولاحت أمام ناظريه صور الماضي الأليم .. وجد نفسه مدفوعًا ومشدودًا إلى إلقاء نظرة وداع أخيرة على حجرته التي تركها آخر مرة دون أن يودعها ظنا منه أنَّه سيعود إليها ثانية ، ما كان يتوقع أن يجد في محنته منحة، وما كان يتخيل أن شر البلاد إلى نفسه ـ وهي البلدة التي يوجد فيها منتحل اسمه ـ تصبح بقدرة قادر أحب البلاد إليه ..!

استأذن من شقيقه أن يسمح له بزيارة عاجلة للمكان الذي آواه ، وحنا عليه ، في الوقت الذي قست عليه الدنيا .. وعرفه في الوقت الذي أنكرته القلوب الغليظة ، ذهب معه "إيهاب" وإنه لفي شوق كبير لرؤية ذلك المكان الذي ترعرع فيه أخوه، واستذكر بين جنباته دروسه ، وضحكت بين جدرانه أحلامه ، ونبتت في رحابه طموحاته وآماله..!!

دخل الشقيقان الحجرة المتواضعة .. ليس فيها من الأثاث إلا سرير خشبي متهالك عليه مرتبة من الإسفنج غطت بملاءة لا يعرف لونها ، وإلى جواره منضدة وكرسي خشبي بثلاثة أرجل كأنه من آثار الفراعنة ، وفي إحدى زوايا الحجرة توجد بعض الألواح الخشبية معلقة على الحائط ، رصت فوقها بعض الكتب في كل التخصصات ، بعضها في التاريخ وبعضها في الجغرافيا ، وأخرى في الأدب والشعر والقصص والروايات ، وفي الموسيقى ، وبعضها ذات طابع علمي غير أن معظمها في الطاقة واستخداماتها وكيفية توليدها ، وكأن "عاصم" كان يستعد لعمل بحث علمي في هذا المجال لكن الظروف الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية قد حالت دون تحقيق هذا المسعى .. هذا ما دار في ذهن "إيهاب" حين وقع بصره على هذه الكتب ، فسأل أخاه ، وعلى محياه ابتسامة زهو وافتخار بأخيه :

ـ ما هذا الكم الهائل من الكتب يا "عاصم" ؟

ـ هذا ما تبقى عندي يا "إيهاب" ..

ـ ما تبقى عندك؟!

ـ نعم .. لقد كان عندي خمسة أمثال هذه الكتب، لكن كما ترى المكان لا يتسع، فكنت كلما انتهيت من قراءة مجموعة من الكتب

أخذتها وعرضتها على أحد الأرصفة أمام إحدى الكليات للبيع بمبالغ زهيدة ، لأني اشتريتها أيضا بمبالغ زهيدة من أصحاب الكتب القديمة.. كنت أبيعها بأثمانها، وربما بأقل مما اشتريتها به، كان مكسبي فيها أني قرأتها.

ـ أفهم من كلامك أنك قرأت هذه الكتب كلها ، وقرأت مثلها خمس مرات ؟!

ـ نعم .. كان الكتاب هو الصاحب الوفي الذي لا يمل مني حتى أمل منه ، وإذا طلبته في أي وقت وجدته .. أحادثه وأهيم في عالمه ، وأبثه شكواي من غير أن يتأفف أو يتضجر .. كنت كلما ضاقت بي الدنيا ، وانتابني الهم والحزن، وشعرت بالوحدة والغربة آوي إليه فأشعر بسعادة غامرة .. أحس كأني دخلت روضة فسيحة غنّاء .. باسقة أشجارها ، متفتحة أزاهيرها ، مذللة قطوفها .. فأقطف من جناها ما شئت أن أقطف ثم أعود إلى عالمي الحزين .

ـ وهل كان لديك متسع من الوقت حتى تقرأ كل هذا الكم؟

ـ يا سيدي كل الناس لديهم متسع من الوقت .. لكن ينقصهم الهمة ، لو قضى الإنسان ثماني ساعات في العمل ، وثماني ساعات في النوم ، تبقى له في اليوم ثماني ساعات .. نفترض أن مجموع صلواته في اليوم تستهلك ساعتين ، وأكله ومشربه في ساعتين .. بقي له أربع ساعات لو قضاها في القراءة ، أو في أي هواية من الهوايات النافعة ، أو صلة الرحم ، أو الجلوس مع الأهل ، أو في التدبر والتفكر لما كان هذا حالنا .. التنظيم والعزيمة والهمة العالية يا أخي هو ما ينقصنا.

ـ عجيب أمرك يا أخي .. من يسمعك الآن ، ويرى سعة أفقك لا يصدق على الإطلاق بأنك كنت في يوم من الأيام من أولاد الشوارع .

ـ وهل أولاد الشوارع يفترض بهم أن يكونوا ناقصي عقل أو معتوهين ؟!

ـ لا .. لست أقصد يا أخي .. لكني أقصد أن الفرص غير متاحة أمامهم للتعلم وتثقيف الذات ، كما أن فرص الضياع مهيأة لهم أكثر .

ـ هذا صحيح .. البيئة لا شك لها دور ، ولكن لو أن شخصًا لديه إرادة وعزيمة للوصول إلى هدف من الأهداف ما حال دون بلوغ غايته حائل .. قد يضعف ، وقد يتعثر لكن مادام يلوح في أفقه هدف عظيم ، وتدفعه إليه إرادة صلبة فلابد أن يصل إليه في يوم من الأيام.

ـ يبدو أنك واحدٌ ممن لديهم أهداف عظيمة وغايات نبيلة .

ـ نعم يا أخي .. ولعل هذا ما جعلني أصبر وأتحمل من غير أن أجزع أو أستسلم .

ـ وما هدفك يا "عاصم" في الحياة ؟

ـ لي في هذه الحياة هدفان : هدف شخصي ، وهدف قومي ، أما هدفي الشخصي أن تتاح لي الفرصة في تنفيذ أفكاري في الطاقة الكهربائية.

ـ الطاقة الكهربائية ؟! وما علاقتك بالطاقة الكهربائية ؟!

ـ أنسيت أني حاصل على دبلوم صنايع قسم كهرباء ؟

ـ وهل دراستك في الدبلوم تكفي لأن تبتكر في الكهرباء ؟!

ـ ومن قال لك بأن علاقتي بالكهرباء مقصورة على ما درسته في المرحلة الثانوية ، لقد كنت أعمل في ورشة الحاج "حامد" وهي ورشة مخصصة لكهرباء السيارات ، ولا شك زادني العمل خبرة في المجال التطبيقي ، فضلاً عن قراءاتي الواسعة في مجال الطاقة وأنواعها ، وكيفية توليدها، وأحدث الابتكارات في مجالها.

ـ صحيح .. لقد تعجبت عندما رأيت هذا الكم الهائل من الكتب في الكهرباء بأنواعها لدرجة أني ظننتك التحقت بكلية الهندسة .

ـ لقد حصلت بالفعل على مجموع كبير في الثانوية الصناعية يكفل لي الالتحاق بكلية الهندسة، ولكني للظروف التي كنت أعيشها رفضت الالتحاق بالجامعة .. كنت حينئذٍ أعمل في مخبز (طابونة) بالليل ، وأنام بالنهار كي أستطيع مواصلة العمل الشاق .. كان العمل يبدأ من بعد العشاء إلى ما بعد الفجر ، فما إن ينتهي عملي حتى أدور أبحث عن زملائي في التشرد أوزع عليهم كيس الخبز الذي أعطانيه صاحب المخبز، وبعد أن يأكلوا وأطمئن عليهم أعود إلى هذه الحجرة أنام نومًا ثقيلًا إلى ما بعد الظهر، فأنهض أصلي ثم أقرأ في بعض الكتب حتى يأتي موعد العمل ، ظللت على هذه الحال حتى جاء موعد الخدمة العسكرية .

ـ لك الله يا أخي .. كم حرمت ، وكم شقيت ، وكم عانيت ..! أتعرف يا أخي؟ قبل أن ألتقي بك ، وأعرف قصتك كنت أظن أني أشقى أهل الأرض ، لأنني كنت أحسب أن قلة ذات اليد هي العقبة الكئود، وهي الطامة الكبرى .. ما كنت أعرف أني أرفل في نعم كثيرة، نعمة الصحة، ونعمة الستر، ونعمة الأمان، ونعمة الدفء، و... نعم لا تحصى لكني كنت أجحدها.

ـ لقد تأخرنـا عن موعدنا يا أخـي .. هيـا نتـرك هذا الماضـي ، ونلقي به وراء ظهورنا لنستقبل فجرًا جديدًا باسمًا ، ومستقبلًا مشرقًا فاتحًا ذراعيه لنا .

*****

(12)

فـي الجنـوب الغربـي لمدينـة القـاهرة تقـع مدينـة السـادس مـن أكتوبر، وهي مدينة جميلـة تختلف قلبًـا وقالبًـا عن المدينـة التـي نشـأ "عاصم" بين ربوعها ؛ فقد جمعت بـين الحسنيين : رونـق المـدن ، ونظافتها، وتخطيطها ، وهدوء القرى وصفائها ، ونقـاء جوهـا رغـم أنهـا فـي الأسـاس مدينـة صـناعية ، لكنهـا خضـعت لتخطـيط مـنظم ، قسمت على أساسه إلى مناطق صناعية ، وأحياء سكنية..!

تبعد المنـاطق الصـناعية عـن الأحيـاء السكنية مخافـة التلـوث الضوضـائي والـهـوائي، وقـد سميت المدينـة بـهـذا الاسم تيمنًـا بنصـر السادس من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثـة وسبعين ، مثلهـا مثـل المدن الأخرى التـي سميت على نفس النسق مثل: (مدينـة السـادات – مدينـة العاشر من رمضان – مدينة العبور .....).

تبعـد المدينـة عـن مدينـة (القـاهرة) بثلاثـين مـيلًا تقريبًـا، وقـد أنشأتها الدولـة للتخفيف من حدة الكثافة السكانية في المـدن الرئيسـية كالقاهرة ، والجيزة ، وغيرهما وكانت المدينـة قبل عام ألفين وثمانيـة تابعة لمحافظة الجيزة ثـم أصبحت محافظـة مستقلة منـذ ذلـك العـام .. والمدينـة نمـوذج نـاجح ورائـع للمجتمعـات العمرانيـة الجديـدة ، حيـث تضم اثنـي عشر حيًـا سكنيًا، بالإضـافة إلـى كثيـر مـن المنتجعـات التـي تحيط بها ، وكثير من التجمعات العمرانية الخاصة .

وتمتـاز أغلـب أحيائهـا بـالتنظيم المعمـاري الجيـد ، والطـرق الممهدة، ولا يزيد ارتفاع مبانيها عن عدة طوابق ، الكثافـة السـكانية في المدينة منخفضة ، ودرجات الحرارة فيها معتدلة ، وتتمتع المدينـة بمناخ صحي جاف تنخفض فيه نسبة الرطوبة ؛ وذلك لارتفاعهـا عـن سطح البحر، وارتفاع منسوبها عن مدينـة القاهرة ..!

وتعتبر من أكثر المدن تطورًا نظرًا لوجود عده جامعات أهلية ، ومعاهد تعليمية تصل إلى ثلاثين معهدًا ، ومستشفيات خاصة وعامة ، ومساجد وما تحتويه من دور للأيتام ، ومراكز تجارية وشبكة من الطرق الحديثة ، وخطوط المواصلات المنتظمة ، وأيضا أشهر المدن الترفيهية ، وهى مدينة الإنتاج الإعلامي، ومدينة دريم بارك، ومدينة الملاهي المائية (كريزي ووتر)، وغيرها من الأماكن والمواقع التي تبهر العين وتخلب اللب.

شعر "عاصم" بسعادة غامرة تملأ قلبه حين وطئت أقدامه أرض هذه المدينة ، استيقظت من غفوتها أحلامه ، وتحركت من ركدتها آماله .. التفت إلى شقيقه ووجهه يشرق بالأمل وقال له:

- ها قد وصلنا إلى أرض الأحلام يا أخي .

- أرض الأحلام ؟

- نعم .. هنا سنبدأ رحلة كفاحنا الحقيقي .. ألست تشعر بالسعادة التي أشعر بها؟!

- أي سعادة يا أخي ؟ أنا لست أشعر بشيء مما تشعر به ، الأمر بالنسبة لي أمر عادي، إنها مدينة ككل المدن .

- كيف تقول هذا ؟ ألست ترى المكان يدعو للتفاؤل ؟

- أي شيء هنا يدعو للتفاؤل ؟

- معك حق .. أنت لم تجرب ما جربته .. لم تتجرع غصص الغربة والمذلة كما تجرعتها .. لم تنم يوما في العراء أو تحت الركام مع الحشرات والجرذان .. لم تر عيناك القبح يتجسد فيما حولك ، والضجيج من كل صوب يهتك سمعك ..! كنت في القرية تعيش عيشة هادئة راغدة ناعمة.. ترى الخضرة من حولك ، ولم تسمع من الأصوات إلا همسا ..!!

- أتبكّتني ، وتلومني يا "عاصم" على أمر لم يكن بيدي ؟!

ـ كلا يا أخي .. إنما أحببت أن أذكرك بالنعم التي كنت ترفل فيها حتى تحمد الله عليها ، وأبين لك سبب سعادتي وانبهاري بهذا الصفاء، وهذا الجمال، وهذا التنظيم الذي لم أره في حياتي من قبل، كنت آمل أن تشاركني سعادتي .

ـ وهل تظن أن رجل الأعمال سيكون صادقًا في وعده ؟!

ـ ولم لا ؟! أليس هو من اتصل بنا وطلب منا أن نجهز أوراقنا ، ونأتي إليه في هذا المكان ؟

ـ ربما يكون اتصاله بنا من أجل الدعاية له والشهرة، فبعض رجال الأعمال يغتنم مثل هذه الفرص لإظهار نفسه بأنه من أهل الخير.

ـ أنت تتحدث كأننا جئنا إلى هنا لنستجدي هذا الرجل .. نحن لم نفرض عليه أنفسنا .. وليس هناك ما يدعوه إلى اغتنام الفرصة للظهور .. الرجل صاحب شركات ، ليس في حاجة إلى دعاية أو طلب مزيد من الشهرة ، وأنت تعلم أن رجال الأعمال عقلهم يغلب على عاطفتهم ، لابد أنه رأى فينا طاقات يستطيع استثمارها .

ـ آمل ذلك يا أخي .

وصل الشقيقان إلى مقر الشركة في تمام العاشرة صباحًا .. وجدا نفسيهما أمام مبنى ضخم مهيب ، وعند بوابته الأمامية وقف طاقم الأمن بزيهم المميز، بنطال كحلي اللون، وقميص لونه أزرق فاتح أو بمعنى أدق سماوي اللون، ورابطة عنق زرقاء.

أخرج كلاهما بطاقتي هويتهما لطاقم الأمن .. تركهما مشرف الأمن واقفين عند البوابة ودخل إلى مقر مكتب سكرتير صاحب الشركة.. لم يغب طويلًا .. خرج إليهما وحياهما بابتسامة وديعة ثم دعاهما للدخول .. مشى أمامهما حتى بلغا مكتب السكرتير .. تركهما المشرف هنالك وعاد إلى مقره .

بابتسامة عريضة استقبلهما السكرتير، وأجلسهما على أريكة محشوة بإسفنج من نوع مختلف عما يألفانه يغوص بهما إلى الأعماق، ومكسوة بنوع من الجلد الطبيعي الفاخر .. الهواء البارد الناجم عن التكييف ينعشهما .. يشعران كأنما صعدت روحاهما إلى بارئها وصارا دونما حساب إلى الجنة .. !!

يختلسان النظر فيما حولهما، وكأن لسان حالهما يقول: ما هذا النعيم؟ هل في الدنيا أحد أنعم من صاحب هذا المكان ؟!

ضغط السكرتير على زر أمامه حضر على الفور شاب أنيق كأنه نجم من نجوم السينما .. سألهما بانحناءة لطيفة :

ـ ماذا تشربان ؟

قبل أن ينطق أحدهما ، قال له السكرتير :

ـ أحضر لهما عصيرًا .

نظر عاصم إلى السكرتير، وقال بصوت متلعثم :

ـ جئنا لمقابلة الأستاذ "شاكر البنهاوي" وفق موعد كان قد حدده لنا.

ـ أعلم .. وكنت في انتظاركما .

ـ معذرة سيدي .. هل سيادتك الأستاذ "شاكر" ؟!

ابتسم الرجل ونظر إليهما من وراء نظارته وقال في هدوء :

ـ لا .. أنا السكرتير .

ـ وهل الأستاذ "شاكر" موجود ؟!

ـ لا تقلقا .. إنه على وشك الوصول .. سيكون هنا ريثما تشربان العصير.

جاء العصير في موعده كغيث صادف أرضًا قاحلة متعطشة للري ، كلما ارتشفا منه قطرة شعرا بنشوة ساحرة ، وارتخاء في أعصابهما المشدودة والمنقبضة كأنما يشربان من خمر الجنة .

قبل أن ينتهيا من مشروبهما اللذيذ ، دخل عليهما رجل .. طويل القامة ، مهيب الطلعة ، وخط الشيب لمّتيه ، لكن مفرقه لا يزال أسودا يلمع كشاب في العشرين من عمره ، عيناه واسعتان تميلان إلى اللون العسلي، دقيق الملامح ، سمهري القد ، ضحوك الوجه، أنيق الثياب .. ذو بشرة بيضاء مشربة بحمرة ..

نهض السكرتير فجأة لاستقباله يبدو أنه صاحب الشركة ، هبَّ الأخوان من مجلسهما المريح احتراما لهذا الرجل ، صافحهما ودخل إلى مكتبه ، ظلا واقفين مشدوهين.. دخل السكرتير إليه وأغلق الباب وراءه، يبدو أنه يتحدث مع صاحب الشركة بشأنهما .. لم تمض دقائق معدودة حتى دعاهما للدخول إليه.

دخل الشقيقان ، وقد بدت الرهبة في محياهما ، والقلق في نظراتهما ، وقفا إزاء مكتبه الفخم كصعلوكين جاءا يستجديانه .. دعاهما للجلوس بعدما رأى دلائل القلق في سحنائهما ، ثم سألهما:

ـ أيكما "عاصم" ؟

وقبل أن يسمع الإجابة من أحدهما استطرد قائلاً :

ـ معذرة .. نسيت أن كليكما يدعى "عاصم" ، إنما كنت أعني صاحب القصة التي عرضت في البرنامج .

رد "عاصم" وقد التقط بعض أنفاسه :

ـ أنا يا سيدي .. وهذا أخي "إيهاب" الذي عاش في كنف أمي .

ـ عظيم .. هل غيرتم اسمه ؟!

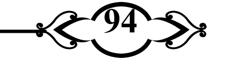
ـ نعم يا سيدي .

ـ علمت من البرنامج أنك حاصل على دبلوم صنايع قسم كهرباء، هل هذا صحيح؟!

ـ نعم يا سيدي .

ـ وشقيقك؟

ـ للأسف لم يحصل على مؤهل .
ـ عجيبة هي الدنيا .. أنت تحصل على مؤهل رغم ما كنت فيه من بؤس وتشرد وضياع، وأخوك لم يحصل عليه رغم ما أتيح له من أمن واستقرار .
ـ كل شيء بقدر الله يا سيدي .
ـ يعجبني فيك إيمانك بالله ، وثقتك في نفسك ، وإصرارك على هدفك .
ـ أشكرك يا سيدي ولكنني أظنها مجاملة منك .
ـ لا يا بني .. بل هي الحقيقة ، وأنا ما دعوتك إلى شركتي إلا لإعجابي بشخصيتك النضالية، وفي واقع الأمر أنا بحاجة إلى شخص مثلك.
ـ أظن أن هناك شبابًا كثيرين يتمتعون بصفات أفضل مما أتمتع به ، فلماذا دعوتني رغم أنك تعلم أني من أولاد الشوارع ؟!
ـ لدي يقين جازم بأنك مختلف عن أولاد الشوارع ، لأنك لو كنت مثلهم لتركت نفسك لشياطين الإنس يفعلون بك ما يشاءون ، لو كنت مثلهم لصرت لصًا أو مدمنًا ، أو مجرمًا ، أو متسولًا ، ولكنك تختلف عنهم بإيمانك القوي بربك ، ونقاء سريرتك ، ونبل مقاصدك ، وصدق حديثك .. تختلف عنهم بعزيمتك الصارمة، وإرادتك الصلبة، وهمتك العالية ، ونفسك الأبية، وقناعتك التي جعلتك تترفع عن الدنيا.
ـ مهلًا يا سيدي .. لقد أخجلتم تواضعي ، يبدو أن سيادتك تصف إنسانًا عظيمًا .
ـ صدقت .. هذه فعلا شيم العظماء ، وقد رأيتها متمثلة فيك .
ـ من قبل أن تتعامل معي ؟
ـ عندي فراسة لا تخطئ .. إذا نظرت في وجه إنسان عرفت كثيرًا من صفاته .



ـ آمل يا سيدي أن أكون عند حسن ظنكم بي ، ولكن أنا لم أعرف طبيعة العمل الذي اخترته لي .
ـ أعتقد أنك سألت عن شركاتي ، وعلمت أني أملك شركة لإنتاج الأدوات والأجهزة الكهربائية ، فنحن ننتج المصابيح بكافة أشكالها ، والمولدات الكهربائية على اختلاف أنواعها وأحجامها ، والمحولات ، والمكثفات ، وغيرها .
ـ نعم .. أعلم هذا .
ـ لقد رأيت أن هذا المكان هو أنسب الأماكن لك وأليقها بك .. هنا تستطيع أن تنتج بنفس راضية ، وهمة عالية .
ـ لقد أحسنت صنعًا سيدي الكريم .. كنت أخشى أن تفرض عليّ أعمالا لا تناسبني .
ـ ماذا كنت ستفعل حينئذٍ ؟!
ـ للأسف ما كان أمامي خيار إلا أن أقبل ؛ لأني في حاجة شديدة إلى العمل مهما كانت طبيعته على أن يكون عملًا حلالًا حرًا شريفًا ، لكنني كنت سأعمل عندئذٍ كالآلة .
ـ يا "عاصم" نحن أرباب القطاع الخاص نستفيد من أخطاء القطاع العام لئلا نصير إلى ما صار إليه من الفوضى والروتين والتدهور والتخلف والركود ، فإذا كان القطاع العام والعمل الحكومي يضع الشخص في غير موضعه اللائق به، فإننا نوسِّد الأمر إلى أهله ، نضع كل إنسان في موضعه ، والكفاءات هي السبيل للارتقاء ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والاجتهاد والابتكار.
ـ بالمناسبة كنت أريد أن أسأل عن الشركات والمصانع الحكومية التي بيعت ما مصيرها ؟
ـ للأسف يا "عاصم" معظم الشركات والمصانع التي بيعت، اشتراها رجال لا يعرفون شيئا عن الصناعات والتصنيع ، ولا يهمهم الاقتصاد القومي للدولة كل ما يهمهم المكسب الشخصي .

ـ كيف؟
ـ خذ مثلا مصنع الكتان في الغربية .. اشتراه رجل أعمال من دولة عربية ـ لا يعرف شيئًا عن الصناعة ـ بخمسة وثمانين مليون جنيه مصري فقط ، كل الخبراء أجمعوا على أن ثمن الماكينات وحدها يفوق هذا المبلغ الذي بيع به المصنع، تبقى المباني ، والأرض الفضاء التي تساوي مليارات الدولارات هي مكسب هذا المستثمر .
ـ تقصد أنه لن يشغّل هذه الماكينات ، وسيقوم ببيع هذه المساحات ؟
ـ بالطبع .. هو رجل يريد أن ينام في بيته لا يشغل باله بعمال أو مواد خام أو استيراد أو تصدير، لقد سرّح العمال من غير أن يعطيهم أجورهم ، تمهيدًا لبيع كل شيء.. وقس عليه كل المصانع والشركات ، ومن هنا لن يصبح في وطننا مصانع ولا شركات ولا استثمار ولا اقتصاد إلا بعض المصانع المملوكة لبعض الشرفاء الغيورين على أمتهم وأوطانهم.
ـ أعتقد أن الحكومة كانت تهدف من وراء هذه الخصخصة زيادة الاستثمار في البلد، وزيادة الإنتاج لأن العمال في الشركات الحكومية كسالى لا ينتجون، ورؤساؤهم لصوص، لقد سمعت عن رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات كان يبيع المنتج ثم يصطنع حريقًا في المصنع بمساعدة بعض البلطجية لتدفع شركات التأمين للمصنع قيمة المفقود .
ـ معك حق .. هذا بالفعل ما كان يحدث ، لكن أين دور الدولة في الرقابة ، لماذا لم يفعّل قانون من أين لك هذا ؟!
ـ ماذا تفعل الرقابة في بلد انتشرت فيها الرشوة والمحسوبية ؟! أظن أن الحكومة أرادت أن تريح نفسها من التفكير في حل المعضلة فلجأت لبيعها للمستثمرين ، ووسدت إليهم الأمر .

ـ لا شك أن العامل في القطاع الخاص يعمل أضعاف ما يعمله العامل في القطاع العام أو الحكومي ، لكن كان بالإمكان أن تضع الحكومة ضوابط على المستثمرين.

ـ كيف ؟

ـ كانت تضع في العقد مثلًا شرط جزاء على المستثمر إذا لم يتم تشغيل المصنع بكفاءة أعلى مما كان عليه في خلال ستة أشهر يفسخ العقد، ويؤول المصنع أو الشركة إلى الحكومة لتعيد إدارته حتى تضمن بقاء الإنتاج كي لا نعتمد على الاستيراد في كل شيء.

ـ ما شاء الله .. عندك لكل مشكلة حل .. الحمد لله الذي هداني إلى رجل من الرجال الشرفاء .

ـ أشكرك يا عاصم.. لقد أخذنا الحديث ولم نتكلم عن تفاصيل العمل.

ـ لا يهم يا سيدي .. المهم أني سأعمل في مجال تخصصي .

ـ لابد أن تعرف شروط العمل في شركتنا حتى تلتزم بها .. مدة العمل ثماني ساعات مقسمة على فترتين بينهما فترة للراحة مدتها نصف ساعة ، وإذا كان هناك وقت إضافي تحاسب عليه بعدد الساعات التي قضيتها.

ـ والراتب يا سيدي ؟

ـ نعم .. الراتب الأساسي خمسمائة جنيه مصري في الشهر مع الحوافز والبدلات قد تصل إلى ثمانمائة جنيه تقريبًا ، هذا بخلاف العمل الإضافي فله حساب خاص .

دارت الدنيا بعاصم ، لم يصدق نفسه ، كاد يصرخ بأعلى صوته ويعلن فرحته التي لا تعدلها فرحة ، بدا وجهه من شدة فرحته بدرًا مضيئًا ، ما هذه النقلة العظيمة في حياته ؟!

أبعد أن كان يعمل في ورشة الحاج "حامد" مقابل جنيهات زهيدة، وفي مخبز "القزاز" مقابل كيس من الخبز يوزعه على

أقرانه البؤساء، وفي محل العطارة مقابل ثلاثة جنيهات يوميا يتبدل حاله ويصل أجره أو راتبه إلى هذا المبلغ المحترم ؟!

يبدو أن القدر بدأ يفترّ ثغره عن ابتسامة حانية تعوضه عما لاقاه من سنوات الحرمان، وعن المصائب والنكبات التي كانت تترى عليه ليل نهار.. صدق الشاعر القائل :

وعاقبة الصبر الجميل جميلة   وأفضل أخلاق الرجال التفضلُ

نظر إلى أخيه كي يرى أثر الفرحة على ملامح وجهه ، فوجده شاردًا، فتذكر أن حواره مع صاحب الشركة كان حوارًا خاصًا به ، وأنهما لم يتطرقا في حديثهما إلى موضوع أخيه ، توجه إلى صاحب الشركة وقال في حياء :

ـ سيدي .. أظن أن هذه التفاصيل تخصني أنا وأخي .

ـ ماذا تقصد يا "عاصم" ؟!

ـ أقصد أن ما يسير عليّ يسير عليه ، من حيث طبيعة العمل والراتب إلى غير ذلك من الأمور .

ـ لا يا "عاصم" .. كل فرد على قدر عمله .. والراتب هنا يختلف باختلاف نوع العمل ودرجة إجادته .

ـ تقصد أن أخي لن يعمل معي في نفس الشركة ؟

ـ ربما في شركة أخرى وربما معك .. لكن إن عمل معك في الشركة فطبيعة عمله ستختلف .

ـ كيف؟

ـ هو لا يحمل أي مؤهل يؤهله لنفس عملك .. لكننا يمكننا أن ندبر له عملا يناسبه، لكن براتب أقل مما اتفقت معك عليه .. كل ما هو مطلوب منكما أن تسلما صورة من أوراقكما الرسمية في مكتب شئون العاملين بالشركة ، وبعد يومين لا أكثر سأصدر قرارًا بتعيينكما في الشركة.

ـ نشكرك يا سيدي على تفضلك علينا ، وعلى وقتك الثمين الذي منحتنا إياه ، وإن شاء الله تعالى سنكون عند حسن ظنك بنا.

خرج "عاصم" من مكتب صاحب الشركة ، وهو من شدة فرحه يكاد يحلق في الفضاء .. بل تكاد رأسه تلامس السماء ، وتفوق الثريا، وتزاحم الجوزاء، نسي في لحظة كل ما رآه في دنياه من ألوان الشقاء، ما أشبه حاله بحال من وصفه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف حين قال : "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في جهنم صبغة ، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب !، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصبغ في الجنة صبغة ، فيقال له : يا ابن آدم ! هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ! ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط ".

هكذا نسي أو تناسى "عاصم" جرحه وألمه ، نسي في غمرة فرحته جرح الفقر وألم الغربة .. ولم لا ينسى وقد رقت له الدنيا بعد جفاء طال وطال ؟

عاد إلى قريته مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، راقص القلب ، هانئ البال ، أخذ أمه في حضنه كأنما يريدها أن تستمد فرحتها من فيض فرحته، ويستمد من دفء حنانها دفئاً خاصا خليقاً أن يدفعه لأن يتسنم ذرا المجد، ويحقق أسمى الغايات.

*****

(13)

مـرت الأيـام تتقفاهـا الشـهور، و"عاصـم" يزداد حظوة ومكانـة وعلو قدر عنـد رجل الأعمـال وصـاحب الشركة التـي يعمل بهـا ، لقد بذل "عاصم" في هذه الشركة أقصى ما في وسعه من طاقـة، لا لينـال أجـرًا مضـاعفا ولكـن لحبـه الشـديد واحترامـه الهائـل لهـذا الرجـل المختلـف عن كل الرجـال الـذين عرفهم مـن قبـل ..هذا الرجـل الـذي شجعه على إكمال تعليمه ، وألحقه بكلية الهندسة في إحدى الجامعات الخاصـة الموجـودة فـي مدينـة السـادس مـن أكتـوبر، ومنحـه الوقـت الكـافي للـذهاب لـبعض المحاضـرات العمليـة، وسـدد كـل مصـروفات الجامعة من حسابه الخاص .

نعم ..إنـه ليذكِّره بالحاج "حامد" ذلك الرجل الذي أنعم عليه في وقت كان مهيئًا فيه للضياع، ودفعه دفعاً إلى التعليم الذي يجني ثمرتـه الآن ، لكن هذا الرجـل الجديـد سـرعان مـا اسـتولى علـى كـل تفكيـره، رجل مـن طـراز خـاص .. رجـل مـن رجـال الـزمن الجميـل .. لـم تنسـه أعماله الكثيرة وشركاته المتعددة ما عليه من واجبات نحو ربـه ونحـو الفقراء والمساكين، رجل صارم في العمل ، رحيم بالبشر .. ومـا أسـعد "عاصـما" بـه حينمـا علـم أن هذا الرجل قد ابتنـى دارًا للأيتـام ينفـق عليها من ماله الخاص ، وأسس مسجدًا ومستشفى لمعالجة الفقراء.

تمنـى أن يكون مثلـه ويفعل مـا يفعلـه هذا الرجـل .. أخذ علـى نفسه عهدًا أن يجتهد ما وسعه الجهد حتـى يصبح غنيًـا ويسـير علـى نفس النـهج الذي يسير عليـه الأسـتاذ "شـاكر" هذا الرجـل الأسـطورة الـذي يبـدو فـي كلامـه مثقفـا غيـر عـادي .. مثقفـا الـتهم الكتـب علـى اخـتلاف مقاصـدها ومشـاربها التـهامًـا، وشـرب مـاء العلـم النقـي حتـى

امتلأت منه روحه ففاضت على لسانه..! نموذج قلَّما يجود الزمان بمثله..!!

ذات يوم تقدم "عاصم" بمشروع ابتكاري صممه بنفسه إلى الأستاذ "شاكر" من شأنه أن يرشد استهلاك الكهرباء، والمشروع عبارة عن جهاز يحول التيار المستمر من اثني عشر فولتًا إلى مائتين وعشرين فولتا ، بحيث تكفي بطارية سيارة لإنارة منزل، كما عرض عليه فكرة اللمبة الموفرة والتي تقوم على أساس توفير السحب أو الاستهلاك في الطاقة، وهي فكرة تقوم على ضرورة إعادة النظر في المواد المستخدمة في صناعة المصباح الكهربائي واستخدام بعض المواد البديلة التي تعطينا إضاءة أعلى بتكلفة أقل ، بمعنى أن المصباح الكهربائي الذي طاقته مائة واط ، يمكن أن يعطي إضاءة مائتي واط بسحب أقل يصل إلى ربع السحب في المصابيح التقليدية المعروفة .

عقد صاحب الشركة اجتماعًا خاصًا على الفور لمناقشة هذا المشروع حضره كبار المستشارين المتخصصين في مجال الطاقة والكهرباء ، وبعد مناقشات طويلة اقتنع الحاضرون بهذا الاكتشاف الجديد الذي يمكن من خلاله زيادة مبيعات الشركة وإحداث نقلة نوعية في توفير الطاقة .

حصل "عاصم" على براءة اختراع من مركز البحوث العلمية ، ومنحه الأستاذ "شاكر" جائزة مالية قدرها مائة ألف جنيه مصري ، وتم تنفيذ المشروع ، وازداد الطلب على هذه النوعية من المصابيح وحققت الشركة مكاسب عظيمة من وراء هذا الاختراع ..!

ارتقى "عاصم" في الشركة ، وأصبح مسئولًا عن قسم التطوير فيها ، وزاد راتبه ، وتوطدت علاقته بصاحب الشركة أكثر مما كانت عليه لدرجة أنه كان يناقشه في كثير من القضايا الخاصة بالشركة وغيرها من القضايا الأخرى التي ليست لها صلة بالشركة ،

وكان يصحبه معه إلى بيته ، ذلك البيت الذي لم ير "عاصم" في حياته مثله ، لا في الحقيقة ولا في الخيال ..!!

(فيلا) تبدو لجمالها وفخامتها كأنها قصر من قصور الجنة ، يحيط بها سور عالٍ مغطى بطبقة من الرخام ، خلف هذا السور تقف في شموخ حديقةٍ غناء فيها من كل أنواع النباتات والأزهار والأشجار على اختلاف ألوانها ، وتنتشر في الحديقة أشجار الياسمين بصورة ملفتة للنظر، لابد أن في ذلك سرًا ، ربما يرجع ذلك إلى حب أصحاب البيت لهذا النوع الذي يفوح أريجه العطري فيسري شذاه مع الهواء فتعبق به الأجواء ، يا له من منظر ساحر خلاب..!!

و يا لها من حديقة منسقة الأشجار ، منمقة الأزهار ، عبقة الروح والأنفاس ، تنم عن ذوق رفيع لدى صاحب المكان ، ولدى من يعتني بها ويشرف عليها ..!!

تتوسط الحديقة فَسْقِيَّةٌ من الرخام الأبيض مستديرة الشكل تمج الماء فيها نافورة تبعث بخريرها العذب الصفاء في النفس .. في نهاية الحديقة يقع البيت .. وما أدراك ما البيت ؟! تحفة معمارية فريدة من نوعها ، وهو مكون من طابقين: الطابق الأرضي يتألف من صالون فسيح يعرف عند الأثرياء بـ(الريسبشن) يصلح لاستقبال العشرات من الرجال والنساء إذا ما أقيم فيه حفل عائلي .. يبدو في جلاله واتساعه وأعمدته الرخامية التي تتوسطه قصرًا عتيقًا أو مسجدًا مهيبًا ، بثت على أرضه المرمرية الزرابي الفاخرة التي تغوص فيها الأقدام ، ونسقت في زواياه التحف النحاسية والخزفية ، ووزعت بطريقة فنية مبهرة أصص النباتات الظلية والزهرية ، وفي وسط هذا المبنى يطل شامخاً طاقم الجلوس وهو ما يعرف بـ(الأنتريه) الذي يبهر العين بجميل منظره ، ودقة صنعه ..

تدلف من الصالون إلى حجرة مكتب واسعة خاصة بالأستاذ "شاكر" يخلو فيها إلى نفسه حين يعكف على القراءة ، ولا يستقبل

فيها إلا خاصة المثقفين.. في هذه الحجرة تنتصب مكتبة ضخمة فيها آلاف الكتب في كل الموضوعات .. وإلى جوار حجرة المكتب حجرة أخرى فسيحة تعرف بحجرة السفرة ، يمتد في وسطها خوان عظيم مستطيل الشكل تحيط به مجموعة من الكراسي المنجّدة بالإسفنج الوثير ، ودولاب يعرف بـ(النيش) مصنّع من خشب الأرو ومطعّم بالعاج يبدو بما وضع فيه من أكواب وأباريق وأطباق ثمينة وقطع من التحف الصغيرة متحفا خاصا ، يبهج النفس ، وتقر بمنظره العين ..!

وإلى يمين حجرة الطعام الموجودة في الطابق الأرضي توجد حجرة الضيوف التي تبدو كريمة الأثاث ، إذ تحظى بسريرين مفروشين فراشًا يليق بأبهة المكان ، وملحق بها حمام خاص داخلي بعيدًا عن المنافع الأصلية للمنزل والتي تحتوي على حمّامين مجهزين تجهيزًا يبهر الأبصار، ومطبخ لا يقل في سعته وبهائه ونظافته عن المطابخ الموجودة في أرقى الفنادق ، ويقوم على شئونه رجل وزوجته يقدمان أشهى المأكولات بمهارتهما الفريدة ، وأنفاسهما الطيبة رغم كبر سنهما ، الرجل يبدو في الستين من عمره ، والمرأة تبدو في الخمسين من عمرها لكنهما يشعان نشاطًا وحيوية جيئة وذهابا بين ردهات القصر من غير ما جلبة أو ضوضاء .

يقف في خشوع في الجهة الأمامية سلم داخلي مفروش ببساط شيرازي فاخر يصعد بك في هدوء وفي راحة تامة إلى الطابق العلوي حيث حجرات النوم .

في كل مرة يزور فيها "عاصم" وليَّ نعمته في هذا القصر المهيب يطل من رأسه حلم جميل يداعب خياله ، ويشعل في نفسه جذوة آماله .. يتمنى لو يضحك له القدر ، ويصير واحدًا من أصحاب هذه البيوت الفارهة .. حلم لم يراوده من قبل .. كان يحلم بشقة صغيرة متواضعة يكمل فيها دينه ، ويؤسس فيها أسرة صغيرة

يشبعها حنانا ، وقد تحقق له ما هو أكبر من حلمه حين اشترى قطعة أرض في القرية التي تعيش فيها أمه وابتنى عليها بيتًا كبيرًا يستوعبه ويستوعب إخوته، لكنه آثر شقيقه على نفسه وزوجه بفتاة مهذبة من عائلة كريمة في القرية .

لكنه بعد أن رأى هذا القصر المنيف، وتردد عليه أكثر من مرة غدا يحلم ببيت مثله ، فأضحى يسائل نفسه في حيرة:

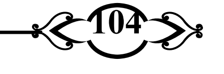
ـ ما هذا الذي أحلم به ؟ ما هذه الأمنيات التي لم تكن تخطر لي على بال؟! أيكون الطمع هو الذي يدفعني إلى هذه الأحلام ؟! أم هي الغيرة من أصحاب هذه البيوت لأنهم حققوا ما لم أحققه ؟ أيمكن أن يكون ما أنا فيه من قبيل الحسد ؟!

معاذ الله أن يكون الدافع لهذه الأحلام واحدًا من هذه الأشياء ، تعسًا لي إذا كان طمعًا..!! وسحقًا إذا كانت الغيرة..!! وتبت يداي إذا كنت أحسد أولي الفضل والنعمة..!!

لعل الأماني الحالمات الرابضات في عقلي وقلبي تكون طموحًا وتطلعا ؛ فأنا لا أطمع فيما كسبت أيدي الناس ، ولكني أطمع في جود ربي وكرمه ، وأتطلع لما في يديه الكريمتين ، مثلما أطمع في رحمته ـ سبحانه ـ ومغفرته ، ولا أظن هذا محرّما ولا مكروها .

وقد يكون ما يعتلج في صدري من قبيل الغبطة لا الحسد ؛ لأني لا أتمنى زوال النعمة عن غيري ، بل كلما رأيت نعمة عند غيري أقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم زده وبارك له فيه ، وارزقنا كما رزقته .

هكذا كان يحدث نفسه كلما خلا إليها ؛ لأنه يخشى على نفسه أن يصير في يوم من الأيام جاحدًا لأنعم ربه، أو جَشِعًا لا يقنع بشيء من نعيم الدنيا .. ويحذر أن ينطبق عليه الحديث الشريف الذي يقول فيه المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لو كان لابن آدم وادٍ من



مال أو ذهب لابتغى إليه ثانيًا ، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ".

لابد أنه الطموح المشروع ؛ فمن حق كل إنسان أن يطمح إلى مكانة أسمى من مكانته التي عليها ، ومن حقه أن يطمح إلى الغنى وإلى الرفيع من المناصب على أن تكون الوسائل للوصول إلى أهدافه وسائل مشروعة لا كما يقول "ميكيافيللي" : "الغاية تبرر الوسيلة" ، ولكن بقانون آخر يتفق مع ديننا وأخلاقنا وثقافتنا ، قانون يصرح بأنه "لابد لكل غاية نبيلة من وسيلة نبيلة".

****

(14)

في مكتبه الفخم الذي يليق بالوظيفة الجديدة جلس "عاصم" يعد التقارير والإحصاءات الخاصة بالشركة لعرضها على صاحب الشركة، وبينا هو منهمك في عمله ومستغرق في تفكيره دخل عليه شقيقه "إيهاب" ، التفت إليه "عاصم" وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة وسأله :

ـ ما وراءك يا إيهاب ؟

ـ لا شيء يا "عاصم" .. ولكني كنت أظنك غير مشغول.

ـ هل هناك شيء يخص الشركة جئت تخبرني به ؟

ـ لا .. كنت أريدك في أمر شخصي .

ـ معذرة يا أخي .. الأمور الشخصية ليس مكانها هنا .. هنا مكان العمل فقط أما الأمور الشخصية فمكانها البيت.

ـ أنا أعرف أن وقتك ليس ملكك، وأعرف أنك بعد انتهاء العمل إما في الجامعة، وإما في بيت الأستاذ "شاكر" لتناقشه في التقارير، وإما مشغولا بالقراءة والمذاكرة، وفي الحقيقة لم أجد فرصة مهيأة لمقابلتك إلا هنا .

ـ هل الأمر ضروري إلى هذه الدرجة ؟!

ـ نعم ضروري .

قال عاصم وقد بدت على وجهه علامات القلق:

ـ هل حدث لأمك مكروه ؟!

ـ لا .. أمنا والحمد لله بخير .

ـ وإخوتنا بخير؟!

ـ نعم يا عاصم .. لا تقلق .. كلهم بخير والحمد لله..!

ـ إذن فما الأمر الضروري الذي تريدني من أجله؟!

ـ أريد أن أعرف عنوان البيت الذي يقطن فيه أبوك..!

تنهَّد عاصم تنهيدة طويلة، وعض على نواجذه، وقال :

ـ قلت لك لا يجوز الحديث في الأمور الشخصية أثناء العمل، صاحب الشركة يأتمننا على هذا الوقت ، والله مطلع علينا ، وكل لحظة نضيعها نحن مسئولون عنها أمام الله .

ـ إذن متى نتحدث في هذا الأمر ؟

ـ اذهب الآن إلى عملك، وبعد العمل نتقابل عندي في الشقة التي استأجرتها هنا..! أظنك تعرفها ؟

ـ نعم أعرفها .

ـ في تمام الرابعة عصرًا سأكون في انتظارك .

ـ أرجو ألا تنسى موعدنا .

في تمام الرابعة وصل إيهاب إلى شقة أخيه "عاصم" .. استقبله عاصم استقبالًا حافلا.. أجلسه في حجرة الاستقبال ودلف إلى المطبخ يعد الشاي.. وبعدما أعده وأحضره قال لأخيه :

ـ الآن فرغت لك .. ما الشيء الذي كنت تريدني لأجله؟

ـ لقد قلت لك يا "عاصم" من قبل أني أريد منك أن تعطيني عنوان أبيك .

ـ ولماذا تريد العنوان ؟!

ـ أريد أن أراه .. أليس أبي ؟

ـ تريد أن تراه .. أبعد ما فعله بنا تريد أن تسأل عليه ؟!

ـ لا تنس أنه والدنا .

ـ والدنا ؟! أي والد هذا الذي فرّق شمل الأسرة وبدد أحلامها ؟! أي والد هذا الذي يرمي بفلذتي كبده للكلاب الضالة تنهش لحومهما ؟!

ـ لا تقسُ عليه يا "عاصم" مهما يكن فله حقوق علينا .

ـ أنت لا تعرف شيئًا يا "إيهاب" ، لم تذق ظلمه وقسوته ، لم تر ما رأيته .
ـ أنا واثق أن قلبك الكبير قادر على أن يعفو ويسامح وينسى الإساءة.
ـ وما الذي ذكّرك به الآن ؟!
ـ لا شيء .. غير أني تذكرت الموت فخشيت أن يموت ، أو أموت دون أن أراه .
ـ وماذا لو كان قد مات ؟
ـ نسأل عن إخوتنا .. الحمد لله أحوالنا الآن أصبحت ميسرة إلى حد ما ، لابد أنهم في حاجة إلى مساعدتنا .
طأطأ عاصم رأسه في خجل وقال: معك حق يا أخي لقد غلبتني بحجتك .
ـ بل لأنك طيب في جوهرك ، ولأني وجدتك تخالق الناس بخلق حسن ، قلت في نفسي لم لا نخالق أبانا بالخلق الحسن .
ـ موعدنا الخميس القادم بعد أن ننهي عملنا في الشركة وقبل أن تسافر لزوجتك نذهب إليه .
قام "إيهاب" مغضبا ، ثم قال بحدة :
ـ لن أنتظر إلى الخميس القادم .. اكتب لي العنوان وأنا ذاهب إليه وحدي .
ـ اهدأ يا أخي .. سنذهب إليه سويا .
ـ اليوم يا "عاصم" .
ـ إن شاء الله .. لكن انتظر حتى أجهز لقمة سريعة ونذهب إليه.. ولكن أمك وإخوتك وزوجتك ألن يقلقوا بشأنك ؟
ـ لقد أخبرتهم بأني سأبيتٍ عندك الليلة .
ـ أراك أعددت العدة مسبقًا ..!!

ـ نعم .. إنـه أبونـا يـا عاصـم ، لا تعرف كم اشتقت إليـه ، وكـم تخيلت حاله الآن لابد أنه في ظروف قاسية ، لا يجب أن نكون نحن والزمان عليه .

خرج الشقيقان متجهين إلى بيت أبيهما ، وبعد أقل من ساعة كانا واقفين إزاء باب الشقة التي يقطن فيها ، لم يرد عاصم أن يغامر ، ويقرع الباب قبل أن يتأكد أنه بيت أبيه فلربما يكون قد انتقل إلى موضع آخر ، لقد مضى على آخر لقاء جمع بينهما أكثر من عشر سنوات ، ومن يدريه لعله قضى نحبه .

سأل أحد الجيران عنه فأكّد له أنه بالفعل أمام بيت أبيه ، قرع الباب ، فخرجت إليهما فتاة رثة الثياب شعثاء الشعر ، ذابلة العينين ، شاحبة الوجه، نحيفة هزيلة ، سألها "عاصم" بلطف :

ـ هل الحاج "فتحي المغربي" موجود ؟

خرج صوت امرأة عجوز من الداخل :

ـ من يا "فرح" ؟

ـ لا أعرف يا أمي .. !!

خرجت امرأة عجوز شمطاء عليها ثياب مهلهلة ، تفوح منها رائحة عجيبة تشمئز منها النفوس ، سألها "عاصم" :

ـ الحاج "فتحي المغربي" موجود؟!

ـ ومن أنتما؟

ـ نحن من الشئون الاجتماعية ، ونريد مقابلته حتى نصرف له مساعدة مالية.

ـ أهلا وسهلا .. تفضلوا .. إنه مريض منذ خمس سنوات لا يستطيع الحراك.

قادتهما إلى حجرة كئيبة مظلمة تفوح من أرجائها رائحة كريهة، يبدو أن الشمس لا تدخلها على الإطلاق ، كما أن مصباحها الكهربائي قد احترق منذ شهور، الحجرة مفروشة بحصيرة من

البلاستيك مهترئة ، لا يعرف لها لون من كثرة ما ران عليها من الأوساخ والقذى، ممدد عليها هيكل إنسان لا يظهر من وجهه إلا أنفه وعيناه الغائرتان اللتان تحكيان بنظراتهما المنهكة حكاية بؤس طويلة وصراع مع المرض مرير .

ما إن رآه "عاصم" حتى انفجر بالبكاء ، وبكى " إيهاب" معه ، والرجل لا يملك إلا أن ينظر إليهما بدهشة ، والمرأة وابنتها واقفتان ذاهلتان تعجبان لأمر هذين الشابين اللذين لا تعرف عنهما شيئاً ، أخرج "عاصم" من جيبه ورقة مالية فئة خمسين جنيها ثم أعطاها للفتاة وقال لها:

ـ اخرجي .. اشتري مصباحا للحجرة ، واشتري فاكهة بالباقي .

تعجبت المرأة من أفعالهما ، وارتابت في أمرهما ، فقال لها "عاصم":

ـ ألا تذكرينني يا عمة؟!

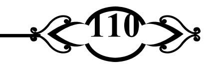
قالت وهي تحدق فيه بعينيها الذابلتين :

ـ لا يا ولدي ..العتاب على النظر ..!

ـ أنا "عاصم" ابن زوجك هذا .

لم تكد تسمع الاسم حتى أجهشت بالبكاء ، وأقبلت نحوه تتأمله وتقول:

ـ "عاصم" ؟!.. أين كنت يا ولدي ؟! لقد بحثت عنك كثيراً لترى حالنا .. لقد عاقبنا الله أشد العقاب بسبب ما فعلناه بك ، لقد مات ولدي الأكبر ، وتدهورت أحوالنا ، ومرض أبوك وليس معنا ما نشتري به دواءً له، ولا حتى ما نشتري به طعامًا لنا ولأولادنا، كل يوم يطلب مني أبوك أن أذهب لأبحث عنك كي تسامحه على ما فعله بك حتى يرفع الله عنا مقته وعقابه، لكنني في كل مرة كنت أرجع بخفي حنين.



أحضرت الفتاة المصباح والفاكهة ، وقف عاصم على كرسي محطم حتى علق المصباح وأضاء الحجرة ، ثم نهض هو وشقيقه ليجلسا أباهما.. ها هما الآن يستطيعان أن يريا أباهما بوضوح ، ويراهما أبوهما بوضوح ، فاغرورقت عينا الرجل بالدموع حينما تذكر الشدة والقسوة التي كان يتعامل بها مع "عاصم" من غير أن يقترف جرمًا أو إثمًا ، بكى الرجل حتى اخضلّت لحيته، أخذه "عاصم" في حضنه ، وقال له :

ـ انظر يا أبي .. لقد أحضرت لك مفاجأة تسرك.

قال الرجل بصوت خفيض ولسان متلعثم:

ـ هل هناك مفاجأة تسرني يا ولدي أكثر من قدومك ؟!

ـ لا هناك مفاجأة أكبر .

التفت الرجل وزوجته وبناته اللاتي أقبلن مسرعات حين علمن بأن عندهن ضيوف ، وقد اشتروا لهن فاكهة ، الجميع ينظرون إلى "عاصم" بدهشة ، ينتظرون المفاجأة، فإذا به يشير إلى الضيف الذي معه ويقول لأبيه:

ـ انظر إلى هذا الضيف يا أبي.. أليس يشبهني ؟!

قال الرجل بعدما تأمّل الضيف مليا :

ـ بلى .. يشبهك كثيرًا يا بنيّ .

ـ إنه أخي، إنه ابنك الذي حرمت منه وحرم منك أكثر من ثلاثين عاما.. إنه توأمي يا أبي ، توأمي الذي ظل مع أمي .

هب الرجل وحاول أن يقف ليحتضن ابنه لكنه لم يستطع فأكب عليه "إيهاب" وراح يقبل يده ورأسه ويبكي وأخواته البنات ينتحبن ، والمرأة في حالة من الذهول تقول بصوت مسموع :

ـ سبحان الله .. قادر وغيره لا يقدر .

بعد أن هدأ الجميع ، وسكنت الشجون الثائرة ، حكى "عاصم" لهم كيف توصل إلى أخيه وإلى أمه ، وكيف منّ الله عليه وعلى أخيه

بعد الفقر والحرمان ، وها هو يعود إلى أبيه وإلى إخوته لأبيه لينتشلهم من حالة الفقر والضياع والجهل والمرض، وقبل أن يتركهم ويمضي إلى سبيله وعدهم بأنه سيأتي بعد يومين على الأكثر ليأخذهم إلى شقة جديدة في السادس من أكتوبر ليكونوا إلى جواره ، يرعاهم ويرعى أباه المريض ، خرج الشقيقان من البيت بعد أن بعثا فيه الحياة من جديد ، وحركا مياهه الراكدة الآسنة لتدب في أوصالهم جميعا حياة جديدة مورقة ، وسعادة لم يتذوقوا طعمها من ذي قبل.

*****

(15)

أصبح من المألوف أن يتردد "عاصم" على بيت رجل الأعمال الناجح الأستاذ "شاكر" ليقدم إليه تقريرًا عن أحوال الشركة في الأيام التي يكون فيها منشغلًا بشركاته الأخرى ، لقد فوّضه بشكل رسمي بمباشرة العمل في هذه الشركة والإشراف على الأقسام المختلفة فيها؛ لما رأى من أمانته ، وإخلاصه ، وعمله الدءوب ، ورغبته في العطاء، وإصراره على التميز.. إنه ليذكّره بشبابه عندما كان في أوج نشاطه، وقمة عطائه ، وذروة طموحه.

في كل مرة يذهب فيها "عاصم" إلى بيت الأستاذ "شاكر" يقف أمام البوابة الرئيسية في خشوع واحترام كأنما هو مقبل على مكان مقدس ، يضغط على مفتاح الجرس برفق .. يفتح له البستاني .. يحييه بابتسامة .. ثم يسأله :

- الباشا موجود ..؟!

يومئ البستاني برأسه ، وعلى ثغره ابتسامة ، يقول في صوت يشبه التمتمة:

- نعم .. تفضَّل يا أستاذ "عاصم" .

يمشي في الحديقة بخطوات حثيثة ، مطرقا رأسه إلى الأرض يخشى أن تقع عيناه على إحدى نساء البيت - وللبيوت حرمات - يتوقع في كل مرة أن تكون زوجة الأستاذ "شاكر" أو إحدى بناته في الطابق الأعلى تجلس في الشرفة المطلة على الحديقة .. فيظل خافضًا رأسه حتى يصل إلى الباب الرئيسي ..فيفتح له الحاج "علي" السفرجي ، ويدخله حجرة المكتب ريثما ينزل إليه الأستاذ "شاكر" .

لا يلبث في مجلسه لحظات حتى يجده واقفًا أمامه بوجهه الطلق وابتسامته العريضة ونظرته الأبوية الحنونة ، يرحب بعاصم ..

فيقف "عاصم" من مكانه إجلالًا وتعظيمًا له ، فيلح عليه الأستاذ بالجلوس فلا يجلس حتى يجلس الأستاذ .

يتجاذبان أطراف الحديث فيما يخص الشركة ، وفيما يخص الملجأ ، وفيما يخص التعليم ، والصناعة ، والثقافة ، وكل ما له صلة بالدولة والأمة .. فيمر الوقت سريعا كالبرق ، يتحسران على سرعة انقضاء الأوقات السعيدة .. يتمنى كل واحد منهما أن يتجمد الزمن، وتتوقف الساعات عند لحظة التقائهما .. كلاهما يرى نفسه في الآخر، رجل الأعمال يرى شبابه وماضيه في "عاصم" ، و"عاصم" يرى حلمه ومستقبله في هذا الرجل.

ينظر "عاصم" في الساعة فإذا بها تقارب الخامسة مساءً .. يهب مذعوراً حينما يتذكر أنه أطال الجلوس ، وحرم الرجل من تناول وجبة الغداء مع أهله.. يستأذن في أدب جم ، يعرض عليه الرجل أن يتناول معه الغداء ، ويلح عليه في الطلب .. بيد أن "عاصما" يصر على الانصراف، فيأذن له حينما يدرك أن لا سبيل إلى إثنائه عن وجهته.

في هذه المرة خرج "عاصم" من القصر منشرح الصدر .. مسرورًا بما تلقاه في هذه الجلسة من معلومات تثري عقله ، وخبرات تصقل خبراته ، وزادٍ روحي جدير بأن يدفعه إلى التحليق في سماوات المجد ..!!

لم يكد يخطو في الحديقة خطوات معدودة حتى وجد شيئا يسقط فوق رأسه ، وقف في مكانه كأنما على رأسه الطير ، مد يده يتلمسه برفق دون أن يرفع بصره إلى أعلى ، وجد ذلك الشيء باقة صغيرة من زهر الياسمين ، بحركة لاشعورية التقطها ثم وضعها في جيبه ومضى من غير أن يلوي أو يتلفت .. ظل يواصل سيره ، ويغذّ الخطى ملتمسا طريقه نحو البوابة الرئيسية حتى خرج إلى الشارع ..

قلبـه يخفـق بشـدة ، جبينــه يتفصـد عرقـاً ، وجهـه يشـحب مـن هـول المفاجأة، يسائل نفسه :

ـ مـاذا جـرى ؟! أفـي حلـم أنـا أم فـي حقيقـة ؟ نعـم أتـذكـر .. لقد سـقطت الباقـة مـن شـرفة الطـابق العلـوي .. تُـرى هـل سـقطت علـى رأسـي عـن عمـد ؟ أم عـن غيـر عمـد ؟ وإذا كـان سقوطـها عمـدًا فمـن الـذي ألقـى بهـا ؟! أيمكـن أن يكـون الأسـتاذ هـو الـذي ألقاهـا ليختبـر أمانتـي وعفتـي؟ أيمكـن أن تكـون إحـدى بناتـه أرادت أن تلـهو سـاخرة منـي لتضـحك أخواتهـا علـيّ ؟! أم تريـد أن تلفـت انتبـاهي إليهـا ؟! كـل هـذا جـائز ويمكـن أن أقبلـه وأسـتطيع أن أتجرعـه عـن رضـا أو غيـر رضـا ، لكـن الـذي لا أقبلـه أن تكـون زوجـة هـذا الرجـل هـي التـي ألقـت بهـا تريـد أن تداعبنـي بهـذه الزهـرات النـاعمـة ، لكـن لا أظـن.. لا يمكـن .. هـذا الرجـل عظـيم ، ولابـد أن تكـون زوجتـه عظيمـة ، إن مثلـه يستطيع أن يختار زوجته بعناية ..لابد أنها سقطت عن غير قصد .

ظل "عاصم" يسير بخفة ونشاط دون أن ينظر خلفه حتى بلغ مأمنه ، دخل شقته التي استأجرها في مدينـة السادس من أكتوبر ، أغلق الباب وراءه ، مد يده في جيبه ليخرج تلك الباقة التي جعلته يرتجف كأنما يحمل في جيبه أداة جريمته ، وضعها على المكتب أمامه يريد أن يستنطقها ليعرف سرها، يسألها بنظرات عينيه الحائرتين :

أيتها الزهرات الفاتنات .. ما وراءكن ؟! أبشارة تحملنها إلـيّ ؟! أم وعيدًا تحذّرنني مغبّته ؟! لماذا حملتكن إلى هنا ؟! أكنت محقًا حينما التقطتكن قبل أن تقعن على الأرض؟ أم كان من الحكمة أن أترككن دون أن أعبأ بكن ؟

لست أدري .. كل ما أدريه أني أشعر برهبة ممزوجة بلذة خفية، وخوف مشوب بالرجاء .. ماذا أقول لسيدي حينما يسألني في الغد عن هذه الزهرات ؟! لابد أنه رآني وأنا أضعها في جيبي كأنما

اعتدت فعل هذا الشيء الذي لم أتعرض له من قبل ..! لماذا لم أنظر صوب الشرفة لأعرف من ألقى بها ؟ ولكن كيف أنظر وهذا الرجل يأتمنني على بيته وشركته ؟

لعل الحل الأمثل أن أبعد عن هذا القصر حينًا من الوقت ريثما ينسى، وريثما تهدأ أعصابي المتوترة .

انقطع "عاصم" عن الذهاب إلى القصر .. مكتفيًا بالهاتف الذي جعله وسيلته الوحيدة لإبلاغه بكل شئون الشركة ، وإذا اضطر إلى الذهاب لأخذ توقيعه على بعض الأوراق أرسل من يثق به ، ويتعلل غالبا بالانشغال بالعمل ، لكن الأستاذ "شاكر" لم يقتنع بتلك الحجة ، ورأى أن وراء هذا الانقطاع سر لا يعرفه إلا "عاصم"، ركب سيارته الفارهة وانتقل على الفور إلى مقر الشركة .. تابع بنفسه سير العمل ، ووجد أن "عاصما" ليس مشغولا بالقدر الذي يمنعه من الحضور إلى بيت أستاذه ، استدعاه في مكتبه الموجود في الشركة ، وسأله بلهجة المعاتب:

- كيف حالك يا "عاصم" ؟
- بخير يا سيدي والحمد لله .
- وكيف حال شقيقك وبقية أسرتك ؟
- كلهم بخير .. ويبلغونك السلام .
- إذا كنت ولله الحمد بخير، والأسرة كلها بخير فما الذي يشغلك عنا ؟
- لا شيء يا أستاذ ، ولكنه العمل ؟
- لا يا "عاصم" هناك سر تخفيه عني .

ارتعشت الكلمات على شفتيه ، يريد أن يستجمع قواه ليرد فتهرب الكلمات ، فسأله ثانية :

- لماذا تصمت عن الكلام ؟ إذن ظني في محله .. هناك سر .. قله لي .. هل أحد من موظفي الشركة وجّه لك لومًا أو عتابًا لحضورك إلى بيتي؟!

- لا .

- هل سمعت كلمة تغضبك من أحد في بيتي ؟

- لا .

- إذن قل لي بصراحة .. لماذا انقطعت عن زيارتي ؟

يا "عاصم" يا ولدي أنا أرى فيك شبابي ، وأسعد كلما رأيتك .. لأنك تشبهني في كل شيء.. أرى فيك ولدي الذي لم أنجبه، وأملي الذي لم أنجزه.. أستكثرت عليّ لحظات السعادة التي أعيشها وأنا معك؟ إن كنت تريد مقابلًا ماديًا على زيارتك لي أعطيتك ولكن لا تحرمني هذه الزيارة ؟ لقد تعمدت أن أجعلك في هذا المنصب لتكون قريبًا مني، وأقللت من زياراتي للشركة كي تأتي إلي بيتي لنجلس سويا فترة أطول، هل أنا لا أستحق ؟

لم يستطع عاصم أن يتمالك نفسه فغلبه البكاء ، وقال :

- كيف تقول هذا الكلام يا سيدي ؟ بل أنا الذي لا أستحق ، لست مدينا لي بشيء وإنما أنا المدين لك ، تفضلت علي وآويتني وأكرمتني، ومننت على أخي وأسرتي ، فكل نعيم نحن فيه إنما هو من فيض كرمك.. أنا لن أكون كاذبا إذا قلت لك بأني في حاجة إليك أكثر من حاجتك إلي.. لن أكون كاذبًا إذا قلت بأني وجدت فيك الأب الذي افتقدته ، والملاذ الآمن الذي طالما بحثت عنه.

- إذا كنت صادقا فيما تقول لا تعد إلى هذه القطيعة مرة ثانية ، هل من البر أن يقاطع الولد أباه ؟!

- إنه لشرف عظيم لي أن أكون ابنًا من أبنائك.

- يا "عاصم" .. لقد أعطاني الله من المال والغنى ما لم أكن أحلم به، لكن كل هذا الثراء لم يشعرني بالدفء والسعادة ، دائما

أشعر وكأن شيئا ما ينقصني لكنني عندما أجلس معك أشعر بالراحة والطمأنينة.

ـ القلوب عند بعضها يا سيدي .

ـ إذا كانت القلوب عند بعضها كما تقول فَلِمَ تبعد عني؟

ـ يا سيدي مستحيل أن أبعد عنك لأني لو عشت عمري كله خادما تحت قدميك لن أوفيك حقك وفضلك علي.

ـ أنا لا أريدك خادمًا .. أنا أريدك أن تكون سندًا لي ، وعصا أتوكأ عليها حين يهدني الزمن.

ـ وأنا تحت أمرك، ورهن إشارتك .

ـ إذن فأنا أدعوك للعشاء عندي في البيت غدا ، وإياك أن تتعلل بأي شيء ، لن أقبل منك اعتذارًا .

قام الأستاذ "شاكر" من مجلسه ، وانصرف من مكتبه وهو يؤكد على "عاصم" بضرورة الحضور ، ركب سيارته، واتجه إلى بيته تاركا "عاصم" يفكر في أمور كثيرة كان من أهمها التفكير في نوع الهدية التي سيأخذها معه عند زيارته لأستاذه العظيم مساء غد.

(16)

فكر عاصم كثيرًا في نوع الهدية التي يجب أن يصطحبها معه إلى حفل العشاء.. كلما فكر في هدية يجد أنها لا تليق بعظمة هذا الرجل، وقيمته في نظره ، حتى لاحت له فكرة ، هو يعرف أن أستاذه بالقراءة شغوف؛ ومن ثم فليس هناك شيء أثمن من الكتاب ليقدمه إلى إنسان هو أغنى الناس عن الهدايا .

اشترى نسخة من كتاب (لا تحزن) للدكتور "عائض القرني" ، ونسخة من كتاب (فكر الفقر وفقر الفكر) للدكتور "يوسف إدريس" ولفهما لفا أنيقا، ولم يفته أن يشترى معهما باقة من الزهور يغلب عليها زهر الياسمين ؛ إذ إنه بفراسته أيقن أن أستاذه ، وربما بقية أسرته مولعون بالياسمين.

قبل ذهابه إلى الحفل بساعتين تقريبًا أرسل الزهور إلى بيت أستاذه مصحوبة بكارت يشكره فيه على هذه الدعوة الكريمة ، وفي موعده حمل هديته، ومضى في طريقه إلى بيت أستاذه، يتعجب فيما بينه وبين نفسه عندما يفكر في ذلك المخلوق العجيب المسمى بالإنسان..!!

يفكر فيما لو أتيح له حياة كريمة كيف يتغير ذوقه ويتبدل حاله عنه إذا ما عاش في بيئة وضيعة ، يتذكر أيام الطفولة المشردة حيث كان ينام في الخرائب بين التلال من القمامة المتعفنة وكيف ماتت حاسة الشم عنده حينئذٍ هو وأقرانه لدرجة أنهم لم يكونوا يتأففون بل أصبح من الطبيعي أن تتلقى حواسهم هذه الروائح الكريهة في غير امتعاض .

ها هو يسير كأمير يتبختر، الثياب الفاخرة .. العطر الفواح .. العقل المستنير.. الأمل البسام.. الوجه الضحوك صورة تختلف اختلافا جذريًا عما كان عليه "عاصم" من قبل..!

لقد استحال بفضل الله ، ثم بفضل هذا الرجل العظيم شخصًا آخر، إن من يرى هيئته، ويتأمل سلوكه ومعاملاته، ويصغي إلى أحاديثه الممتعة ، ليشعر بأن هذا الشاب الأنيق قد ربي تربية خاصة تضارع تربية أبناء الملوك والأمراء ، شاب تجمعت فيه كل أخلاق النبلاء ، شاب ـ كأستاذه وسيده ـ من طراز فريد ؛ ففيه صبر وأناة ، وفيه حلم وتواضع، وفيه جود وسخاء ، وفيه عفة وحياء، وفيه شجاعة وإقدام ، وفيه أدب ووقار، وفيه ثقافة ولباقة ، وذكاء وفراسة .

رن الجرس برفق كعادته ، فتح له الحاج "علي" .. ثم داعبه بجملة لطيفة :

ـ مش عاوزين النهاردة ..!

ابتسم على إثرها "عاصم" وسأله عن الأستاذ ، فأخبره بأنه في انتظاره، دخل "عاصم" إلى غرفة المكتب كالعادة فوجد الأستاذ "شاكر"(صاحب الشركة) ، والأستاذ "نشأت" سكرتير الشركة في انتظاره ، وحينما وصل "عاصم" نادى الأستاذ "شاكر" على الحاج "عليّ" وطلب منه أن يعد العشاء .

قدم "عاصم" هديته إلى أستاذه ، ابتسم له الأستاذ قائلًا:

ـ لماذا تتعب نفسك يا "عاصم" ؟

ـ أبدا يا أستاذ ، التعب في سبيلك راحة، ثم هي هدية متواضعة لا تليق بشخصكم العظيم .

ـ أنا لا أحب كلمات التملق هذه .

ـ أنت أدرى الناس بحالي ومشاعري تجاهك ، وتعلم بأني أبعد الناس عن التملق.



ـ أنا أعلم جيدا يا "عاصم" ولكني أمزح معك .
نظر السكرتير إلى "عاصم" وقال :
ـ لقد وضعتني الآن في موقف لا أحسد عليه يا "عاصم" ؛ لأني لم أحضر هدية.. الأستاذ "شاكر" حينما دعاني أخبرني بأنه مجرد عشاء عائلي ولهذا لم أحضر معي غير زوجتي.
قال الأستاذ "شاكر" :
ـ زيارتك لنا في حد ذاتها أعظم هدية يا أستاذ "نشأت".
ـ أشكرك على أدبك ، وذوقك الرفيع .. لكن هذا لا يعفيني من تهمة التقصير .
أعدت المائدة ، ورصت عليها الأطباق بشكل فنيّ يبهج النفس ويفتح الشهية ، وامتلأت بألوان من أطايب الطعام مما لم ير عاصم مثله في حياته ، حمام محشوّ بالفريك ، ودجاج رومي ، وأشكال متعددة من اللحوم الحمراء المحمرة والمشوية والباردة ، وألوان من الحلوى والعصائر ، والفاكهة.
كل أخذ موقعه ، وأصبح على أهبة الاستعداد لالتهام هذه الوجبة الشهية فإذا بزوجة الأستاذ "نشأت" تقبل ، وأقبلت معها شابة ذات جمال ساحر يأسر الألباب ، ويفتك بالقلوب ، فتاة في العشرين من عمرها ، حوراء العينين ، طويلة الأهداب ، شديدة سواد الشعر، متوسطة الطول، رشيقة القوام، دقيقة التقاطيع ، بيضاء البشرة ناعمتها كأنها القمر ليلة البدر، متوردة الوجنتين والشفتين ، هضيمة الكشحين، لينة القد كغصن البان.

ما إن دخلت الحجرة حتى شعر "عاصم" كأن المصابيح اشتد ضوؤها، وكأن سحرًا من نوع جديد دخل معها ينفذ إلى القلب فيضرم فيه نارًا ليست ككل النيران ، نارًا تجعله يرقص طربًا ، ويهيم شوقًا ، ويذوب عشقًا ، ويبتهل ألا يخبو أوارها ، وألا ينطفئ سعيرها.

قام إجلالًا من مجلسه .. تعلقت عيناه بعينيها الساحرتين للحظات.. تسمّر كل منهما في موقعه .. خفق قلباهما بعنف ، أغضى حياءً واستطاع أن يهرب من سحر نظراتها النافذة في الضلوع، جلس الجميع في أماكنهم.. ظل "عاصم" واقفًا ساهمًا كأنه في سنة من النوم اللذيذ ، أفاق على صوت أستاذه يناديه ، ويطلب منه الجلوس..!

شعر الأستاذ بما يدور في رأس "عاصم" من أسئلة لا يجد لها جوابا ، فقصّر عليه المسافة ، وأراد أن يزيل الإبهام والغموض الذي يحيره ، فأشار إلى السيدة الكبيرة وهو ينظر إلى "عاصم" ويقول:

ـ هذه مدام "منى" زوجة الأستاذ "نشأت" .

حياها "عاصم" بانحناءة لطيفة ، وابتسامة خفيفة ثم قال:

ـ تشرفنا .

قالها بلسانه لكن قلبه لا يزال معلقا بالجوهرة الصغيرة ، كان يظنها في بداية الأمر ابنة الأستاذ "نشأت" لأنها أقبلت مع زوجته ، لكن الأستاذ "شاكر" سرعان ما أماط اللثام حين أشار إلى الشابة الصغيرة وقال :

ـ وهذه قرة عيني ، وأملي في الحياة ، وأعظم نعمة مَنّ بها الله عليّ، هذه ابنتي "ياسمين" التي ليس لي في الدنيا سواها .

ثم التفت إلى "عاصم" وأشار إليه قائلاً :

ـ وهذا "عاصم" يا "ياسمين" الذي حدثتك عنه .

تلفت "عاصم" يمنة ويسرة كأنما ينتظر دخول والدة "ياسمين" ، ففهم الأستاذ نظراته فبادره بالإجابة:

ـ توفيت والدة "ياسمين" منذ كانت "ياسمين" طفلة في عامها الثاني،ثم توليت تربيتها ورعايتها إلى أن أصبحت ما شاء الله عروسًا .

قال "عاصم" :

ـ أفهم من ذلك بأنك لم تتزوج بعد وفاة زوجتك ؟
ـ نعم .. وأعرف أن هذا سيثير دهشتك ، لأنه ما من أحد إلا وقد سألني ذلك السؤال الواقف على طرف لسانك الآن ، جميعهم سألوني : لماذا لم تتزوج بعد وفاة زوجتك رغم أن ظروفك ميسرة ، السر في هذا يرجع إلى أمرين : أولهما : أنني كنت أحب زوجتي حبًا غير عادي فلا أتخيل نفسي مع واحدة غيرها ، والأمر الثاني: أنني أحب ابنتي ، ولا أرغب في أن تتحكم فيها امرأة ، وتعاملها معاملة قاسية على نحو ما نسمع عن زوجة الأب.
ـ بارك الله لك فيها ، وجعلها قرة عين لك .
التفت الأستاذ "شاكر" إلى الجميع وقال :
ـ تفضلوا يا سادة .. لقد أخذنا الحديث ، ونسينا الطعام .
أقبل الجميع على الطعام بشهية مفتوحة إلا "عاصم" الذي انشغل عن الطعام منذ أقبلت "ياسمين" يختلس النظر إليها من طرف خفي بين اللحظة واللحظة فيجدها هي الأخرى تختلس النظرات إليه فتتلاقى عيناهما فيبتسمان ابتسامة وديعة ويطرقان إلى الأرض في حياء وخجل ، كانا يتبادلان النظرات دون كلام.. الصمت لغة ، والإشارة عبارة تفصح عن المعاني والصور والعواطف.. حديث طويل تبادلاه في لحظات صمتهما.. الجميع من حولهما منهمكون في الأكل يلتذون بنكهته الشهية ، لكنهما لا يشعران بمن حولهما ، كلاهما لا يرى إلا الآخر ، وكأنهما يحلقان في عالم نوراني ليس فيه من البشر سواهما .
شرد بذهنه للحظات تذكر باقة الياسمين التي ألقيت فوق رأسه في حديقة المنزل .. الآن أدرك من الذي ألقى بها ، هذه العيون بلا شك تشي بصاحبتها ، لم يعد في قلبه شك ، والآن أيضًا أدرك لماذا يحبون أزهار الياسمين في هذا البيت ، تُرى هل رأت باقته التي أرسلها قبل مجيئه إلى هنا الليلة ؟! نظرات عينيها فيها الإجابة عن

كل ما يموج بخاطره ، كأنما تقرأ أفكاره ، وكأنه هو الآخر أوتي قدرة عجيبة يستطيع بها أن يسمع بعينيه كل كلمة تنطق بها عيناها.

كانت مفاجأة لعاصم حين علم أن هذا الرجل العظيم ليس له في الدنيا إلا هذه الفتاة الوحيدة التي أراد لها القدر أن تنشأ يتيمة الأم ، ومن عظيم إخلاص أبيها ووفائه لزوجته لم يتزوج بعدها رغم ما هو فيه من رغيد العيش وسعته ، وما يتمتع به من وسامة وشباب وقوة ، ولأنه يحب ابنته حبًا جمًا آثر أن يُسبغ عليها حنانه وحبه ورعايته ليعوضها عن حنان الأم ، لم يرد أن يشارك ابنته في قلبه أحد .. وهب عمره وحياته من أجلها ..!!

تبادرت إلى ذهنه على الفور صورة أبيه ، وجد نفسه يعقد مقارنة سريعة في عقله بين أبيه الذي ألقى به في ظلمات الشوارع وجهالتها ، وقسوة الدنيا ومرارتها، وبين هذا الرجل الذي آثر ابنته على نفسه ، الرجل الذي تحمل فورة الشباب وعنفوانه ، وكبت غرائزه، من أجل إعلاء غريزة وحيدة.. وما أسماها من غريزة، إنها غريزة الأبوة التي لا يعرفها ولا يقدرها إلا من فقدها .

وما أدهش عاصمًا حينما عرف بعد ذلك أن أستاذه استعاض بالأيتام في الملجأ الذي أنشأه ويرعاه عن قلة الأولاد.. بل حاول أن يجعل من هؤلاء الأيتام إخوة لابنته إذ كان يأخذها منذ كانت صغيرة في نهاية كل أسبوع أو نهاية كل شهر وفق جدول أعماله إلى هذا الملجأ لتلعب مع هؤلاء الأولاد حتى تنشأ بينها وبينهم علاقة ود وصداقة ومحبة، لتظل ترعاهم ، وتهتم بهم ، وتنفق عليهم بعدما يؤول إليها ميراث أبيها في يوم من الأيام .

هنالك أدرك عاصم سر اهتمام هذا الرجل به .. إنه يشعر بالوحدة ، ويشعر بالغربة ، ويخشى على ابنته تقلبات الزمن ، يريد أخًا لها يقف إلى جوارها ، يحميها من ضربات القدر الموجعة ، ويذبُّ عنها ذئاب البشر المفترسة، لقد قالها لعاصم ذات مرة: أريدك

أن تكون سنداً لي في هذه الحياة ، وعصًا أتوكأ عليها حين يهدني الزمن، ولهذا السبب قرر "عاصم" منذ ذلك اليوم أن يلازمه، ويكون طوع أمره.

****

(17)

منذ هاته اللحظة التي تعرف فيها "عاصم" على "ياسمين" تغير طعم الحياة .. أصبح لها لون ومعنى ..هذه الفتاة التي أضحت تثير عواطفه ، وتأسر لبه ، وتتربع على عرش قلبه ، وتؤجج نار الجوى الكامنة في أعماقه .. كل كلمة تقولها، كل همسة أو إشارة أو نظرة منها كالغيث تتلقاه أرضٍ عطشى.

أصبح في حبها مشتاقًا يترقب .. يتحيّن الفرصة التي تجمعه بها، بل إنه ليختلق الفرص اختلاقًا .. ليطير إلى بيت حبيبته ، ومليكة قلبه بجناحي شوقه الملتاع، وحبه الغامر الفياض، عساه يحظى بومضة من ومضاتها البهيّة، أو نظرة تروي ظمأ فؤاده الموّار، وغُلَّتَه الصادية..!

كانت هي الأخرى على موعد مع ذلك النبع الصافي من الحب النقيّ.. تقف كل يوم وقت الأصيل في شرفتها كأنها الشمس في بهائها، أو القمر في صفائه ، تنتظر قدوم فارسها النبيل .. مع هبوب النسيم العليل لتكحّل عينيها النجلاوين بنور طلعته، وبريق ابتسامته التي توقظ فيها دفيء المشاعر ، وترسم دوماً على شفتيها نشيد السرور.

ما أطيب الحياة حين يرقّ الزمان ، وحين يجود على العاشقين بوصلٍ بريء ، ولاسيما إذا كان هذا بُعَيْد الفراق ، وطول اشتياق .. فيحلو اللقاء.. ترى الصمت فيه يفوق الكلام.. بياناً وسحراً ، ولطفاً وأنساً.

كلام العيون .. فصيحٌ بليغٌ يداوي الشجون .. ويطفئ نارًا لظاها الحنين .. فيحلو اللقاء .. وتصفو السماء.. ويسطع في الأفق نور الرجاء..!!

أصبح من الطقوس المعتادة لدى عاصم عند زيارته لأستاذه ، أن تكون الزيارة في وقت الأصيل؛ حيث يرق النسيم ، وترسل الشمس أشعتها نضارًا خالصًا على ذرا الأشجار، وذوائب الجبال والبيوت والقصور ، ليجد الأميرة تطل من شرفتها كالكوكب الوضاء ، يقف في الحديقة يرنو إليها كنجمة تلألأت في صفحة السماء ، يفترّ عن ابتسامة ثغرها النضيد ، يبادلها السلام ببسمة سقاها من حبه العظيم ، يقولان بنظراتهما ما لا تقدر عليه الألسنة ، يبثها ألمه ويشكو لها سهاده، وتبثه نجواها وتشكو له تباريح الغرام ، ثم يودعها بإشارة خفيفة، ويمضي في سبيله .

في المرة الأخيرة ترك لها رسالة معلقة في غصن من أغصان شجرة الياسمين، ولأنها رأته وهو يعلقها ، انتظرت حتى غادر المكان، هبطت السلم كعصفورة رشيقة لتقرأ الرسالة ، طريقة قديمة لكنها عندها أفضل ألف مرة من رسائل الجوال أو رسائل الحاسوب التي ينتشر عبرها الغش والتدليس ، كادت تطير حين طالعت سطور الرسالة التي يعبر فيها لأول مرة عن مكنون خواطره تجاهها في أدب وحياء ، وأسلوب شاعري جذاب ينم عن أحاسيس مرهفة ، يقول في الرسالة :

" أميرتي الجميلة ..

لست أدري من أين أبدأ الكلام ..!!

فهذه أول مرة يخفق فيها قلبي ، وهذه أول رسالة أخطها في حياتي لمن ملكت بسحرها كل مشاعري ، وجعلتني أهيم في عالم من النشوى ، وأسبح في بحار من السعادة.

مليكتي .. لم أجد من الكلمات ما أعبر به عن صدق مشاعري تجاهك إلا هذه الخاطرة التي كتبتها بالأمس ، وها أنا ذا أرسلها إليك وأرجو أن تنال رضاك:

تجلَّت بأفقي من الغيد غادةْ

هي البدر نورْ..
هي الشمس نورْ..
هي الحب لا يعتريه الفتورْ..
هي الفرح ممتزجا بالسعادةْ ..
هي السحر إن ضاعِ سحر الوجودْ
وما يفتأ القلب بحثاً عليها يجوب الدهورْ
ألا غادتي كان قلبي كسيرْ
يتوق إليك اشتياق الأسيرْ
لحُرّ الأملْ..
ولما تجلّيتِ نوراً لفنِّي
رمى القلب شعراً وأضحى يغني
يغني نشيداً يذم الفراقْ
وينسلّ بين الورى أجمعينْ
يجمّع أفئدة العاشقينْ
ويحيي الغرام الأثير القديمْ
****
أ حوراء إني أهيم بطرفٍ
رماني فأضحى كضربة سيفٍ
وثغرٍ نضيدٍ كأنَّ الإلــهْ
حباهُ بِدُرٍّ ليحلو السمرْ
وصوتٍ رخيمٍ كأنَّ صداهْ
هديلُ الحمائمَ فوقَ الشجرْ
وطَيْفُكِ يَسْرِي كماءِ الغديرْ
ولَحْظُكِ يَسْبِي مئاتِ البشرْ
أراكِ وأنتِ هُنَا تَرْفُلِينْ
غزالاً تهادى بوقتِ السَّحَرْ

وأسعدُ حينَ أَرَى البَسَمَاتْ
على شفتيكِ كضوءِ القمـرْ
أسائلُ نفسي:
أ "بلقيسُ " عادتْ ..
لِتَرْفُلَ في وَشْيِ هذا الزمنْ ؟!
أ"فينوسُ" قامتْ..
لتحيي الطللْ ؟!
أ حوريةٌ جُبْتِ سِتْرَ الغَيَوبِ ؟!
أم الشَّيْبُ لاحَ فزاغَ البصرْ ؟!
معـاذَ الإلـهْ..!!
فأنتِ تفوقينَ كلَّ الرموزْ
لأنكِ أنتِ نشـيدُ العُمُـرْ
****
ألا غادتي.. ليت قلبي حديدْ
أصمٌّ فَلا يدري كيف الشعورْ
وليت حنيني جبالُ جليدْ
فلا يكتويني بنارِ السعيرْ
فَصَوْتُكِ سِحْـرٌ
وعيناك بحـــرٌ
وَوَصْلُكِ خَمْـــرٌ
وَوَقْعُ خُطَاكِ بقَلْبي نَغَمْ
أقولُ نعمْ
يعودُ الهناءُ
ويحلو اللقاءُ
وتصفو السماءُ
إذا كان مثلُكِ بين الأممْ

أقولُ نعمْ ..أقُولُ نَعَمْ .. !!

لم تكد تنتهي من قراءة الخاطرة أو القصيدة التي أرسلها حتى سالت دموعها على وجنتيها المتوردتين ، واتقد حنينها ، وازداد خفقان قلبها ، وتأججت نار الجوى بين جوانحها ، وأسلمتها الكلمات التي انسابت بين ضلوعها كجدول رقراق معشوشب الضفاف إلى شوق جارف ، وسهد عاصف.

مضى إلى بيته دون أن يدري ما فعلته رسالته في حبيبته ، كل ما يدريه أنه أصبح في حالة من النشوة والسعادة لم يشعر بها من قبل ، أصبح يعشق الحياة بحلوها ومرها ، يرى حبيبته في كل شيء من حوله .. يراها في الزهرة المتفتحة ، يراها في صفحة الماء ، وفي أديم السماء .. أصبحت باختصار حلم حياته الأكبر .

في صبيحة اليوم التالي ذهب إلى الشركة وكله نشاط وحيوية وإقبال على الحياة بأمل متحفز ونفس متوثبة .. وبينا هو منخرط في عمله دخل عليه سكرتير الشركة ، وقال في أدب:

ـ أيمكن أن آخذ من وقتك بضع دقائق ؟

رد "عاصم" وهو يحاول أن يقوم تبجيلا للرجل :

ـ تفضل يا سيدي .. أنا تحت أمرك .

ـ سمعت كلامًا .. ربما يكون إشاعة ، بأنك ..

ـ بأني ماذا؟!

ـ قصدي .. بأنك تميل إلى "ياسمين" ابنة "شاكر" بك صاحب الشركة.

تغيرت ملامح وجه "عاصم" ، وتبدلت ابتسامته الصافية إلى تقطيبة عابسة، وقال:

ـ من أين جئت بهذا الكلام ؟!

ـ أنا في الحقيقة لا أعرف المصدر ولكن كثير من الناس يتداولونه .

ـ هذا الكلام ليس حقيقيًا ، ولابد أن أعرف من الذي أنشأه وأذاعه.
ـ أنا أيضا كنت مندهشا مثلك حين سمعته ، ولكن معرفتي بك تجعلني لا أصدق ما يقال حتى أتأكد منك .
ـ وماذا يهمك في هذا الأمر ؟!
ـ الأمر يهمني جدًا .. ألا تعلم أن "شاكر" بك صديقي منذ سنوات طويلة ؟ ثم إننا سيجمعنا النسب قريبًا ونصبح عائلة واحدة .
شرد عاصم للحظات ثم انتبه للرجل ، وقال له:
ـ أي نسب سيجمع بينكما ؟!
ـ ألم يقل لك الأستاذ "شاكر" ؟
ـ الأستاذ "شاكر" لم يتحدث معي في أي أمر من الأمور العائلية إلا في يوم الحفلة التي دعيت إليها معي .
ـ منذ هذه الليلة وأنا لاحظت اهتمامك الزائد بياسمين .
ـ إذن الكلام الذي تحدثني عنه مجرد تخمين وظنون ، أليس صحيحاً؟!
ـ إنما أردت أن أتأكد إن كنت على علاقة بها أم لا ؟
ـ وماذا يضيرك إن كنت على علاقة بها ؟!
ـ طبعاً يضيرني لأن "ياسمين" مخطوبة لابني المهندس "حسام".
نزل الخبر على رأس "عاصم" كالصاعقة، كاد يسقط من هول المفاجأة ولكنه تماسك، وقال له:
ـ لكنني لم ألحظ وجود خاتم أو دبلة في يد "ياسمين".
ـ في الحقيقة أنا قرأت الفاتحة مع والدها منذ فترة ، ولكن عما قريب ستتم مراسم الخطبة الرسمية .
ـ وهل "ياسمين" على علم بهذه الفاتحة ؟!
ـ وماذا يفيد علمها ؟!

ـ أليست صاحبة الشأن ؟!

ـ والدها هو صاحب الشأن، وليس للفتيات رأي في هذا الأمر، إننا أناس شرقيون نحافظ على العادات والتقاليد.

ـ هل معنى أننا شرقيون أن الفتاة ليس لها رأي في أمر الزواج ؟ كلا يا سيدي ، إن أعظم ما يميزنا كشرقيين مسلمين أن تستأذن البكر في أمر الزواج لأن هذا الأمر خاص بها .

ـ قد لا ترى البنت مصلحتها لأنها ليس عندها خبرة أما أبوها فيعرف أين مصلحتها.

ـ أظن أن الآباء يحسبونها بمقاييس مغايرة ، مقاييس المعيار فيها هو المصلحة المادية فحسب ، ولهذا تكثر في مجتمعاتنا قضايا الطلاق والخلع.

ـ يبدو من حديثك أنك حاقد على هذا الزواج ، وتتمنى ألا يتم .

حاول "عاصم" أن يتماسك ، ويكبت ألمه داخله وهو يقول:

ـ على كل حال .. مبارك عليكم .. نعم ما اخترت لولدك..!

ـ أشكرك يا "عاصم" ، وعقبى لك ، ولا تنس أنك مدعو في حفل الخطوبة.

****

(18)

انقطع "عاصم" عن الذهاب إلى بيت الأستاذ "شاكر" دون سابق إنذار، كان من الضروري أن يخلو إلى نفسه ليراجع حساباته من جديد، فكر كثيرًا في الأمر ورأى أنه كان مخطئًا حين تخيل أو خطر بباله أن"ياسمين" تبادله نفس العاطفة والمشاعر التي يكنها لها في قلبه.

شعر بالحسرة والألم والندم عندما تذكر أمر الرسالة التي تركها لها في حديقة القصر.. تخيلها وهي تقرأها ثم تضحك ساخرة من سذاجته .. نعم كان من الواجب عليه أن يفكر مليا قبل أن ينجرف في تيار هذا العشق الذي لم يغرق أحدًا سواه، يسأل نفسه ، وهو يتمزق من الحيرة:

ـ أمعقول أنها كانت تخدعني وتمثل عليّ مظاهر الحب؟!

أمعقول أن تتصف صاحبة هذه الملامح الملائكية البريئة الطاهرة بالمكر والخديعة ؟! وما الذي يجبرها على هذا؟ أتكون رغبة منها في التسلية كفعل القطة مع الفأر قبل أن تقتله؟!

لا .. أنا لا أصدق ، إنها فتاة بريئة ، عبّرت لي بصدق عما يجيش بصدرها ، ولكن يا عاصم يجب أن تكون واقعيًا .. هل عبرت لك بلسانها؟! ، هل قالت لك ولو لمرة : إني أحبك ؟!، إنها مجرد استنتاجات منك وتحليل ـ قد يكون مخطئًا ـ لنظراتها ، وهمساتها التي لم تسمعها ، وابتساماتها التي قد تكون عابثة ولاهية وفسرتها على هواك ..!! ما الذي يدعوها لأن تحب شخصًا مثلك ؟!

فتاة في جمالها وثرائها وجاهها ومؤهلها تحب شابًا كان في يوم من الأيام ولدًا من أولاد الشوارع لا قيمة له ولا وزن لمجرد أنه يعمل في إحدى شركات أبيها ؟! أنسيت نفسك يا "عاصم" ؟ هل تعلو

العين على الحاجب؟! من أنت حتى تفكر فيك أي فتاة فضلًا عن هذه الأميرة الجميلة؟! أنت في الحقيقة لا شيء .. محض سراب.. أين أنت يا صعلوك بين الملوك؟!

إن من الأمور الطبعية والبدهية ومن المعتاد والمألوف بين الناس أن الغنية لا تتزوج إلا غنيًا ، والفقير لا يتزوج إلا فقيرة إلا في خيال الكتاب والأدباء والشعراء ؛ لأنهم يعيشون في عالم من صنع خيالاتهم وأوهامهم ، عالم مثالي يتمنون تحقيقه على أرض الواقع، لكنهم حين يتعاملون مع الواقع الحقيقي يصدمون .. تتبدد أحلامهم وأمانيهم ، تنزوي أفكارهم في كتب هناك تلقى على الأرصفة لتداس بالأقدام حين يهرع الناس لجلب رغيف الخبز ليسدوا به الأفواه الفاغرة.

أفاق "عاصم" من شروده ، وقرر أن لا يستسلم لليأس المرير .. إنها مجرد كبوة ، وما أكثر الكبوات في حياته ، لقد كان يحيا حياة سعيدة قبل أن يتعرف عليها، كان له آماله التي يدور في فلكها، وأحلامه التي يصبو إلى تحقيقها ..

إن "ياسمين" لم تكن سوى حلم جميل أومض في حياته كالبرق الخاطف، ثم لم يلبث أن خبا وميضه ، وليس هذا نهاية الدنيا ؛ فهناك من الأحلام والأماني ما يجعل للحياة طعمًا ولونًا وبريقًا ، لازالت تلوح في أفقه الطموحات التي يستطيع أن يثبت بها ذاته ، ويؤكد عن طريقها للعالم كله أن الإنسان بما أنجز وحقق ، وقال : هاأنذا وليس بماله ولا جاهه ولا سلطانه الذي جاءه على طبق من ذهب.

لا يزال عاصم يعاتب نفسه على الأيام التي قضاها يجري وراء سراب خادع ، أ مجرد ابتسامة منها ـ ربما تكون من قبيل الشفقة عليه ـ تجعله يهيم بها شوقا ، ويبني قصورًا من الأحلام والأوهام؟!

هكذا قضى "عاصم" جُلَّ وقته يعاقب نفسه على جريمة لم يقترفها ، وذنب لم يسع إليه ؛ أو ليست القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ؟! ما ذنبه إذا ألفى قلبه يميل إليها ويهيم بها؟!

ولكن .. أين عقله ؟! لقد سمي العقل عقلًا من العقال الذي تربط به الدابة كي يكبح به جماحها ، والعقل في الرجل هو الذي يكبح النفس الجامحة، ويرد القلب الشارد إلى صوابه، أين كان عقله إذن ؟! لماذا لم يسأل نفسه في بادئ الأمر عما سيجنيه من جراء هذا الوهم المسمى بالحب؟!

أسئلة وأسئلة تراكمت على قلبه وعقله حتى كاد يطير صوابه ..!

في نفس الوقت الذي يعاقب فيه "عاصم" نفسه جلست "ياسمين" في حجرتها تسائل نفسها هي الأخرى في حزن كظيم :

ـ لماذا غاب "عاصم" ؟ لماذا تأخر ؟ لماذا لم يعد يأتي إلى بيتنا؟! أيكون أبي قد كشف أمرنا وعرف سرنا ؟! ولكن .. أي أمر، بل أي سر؟!

إننا لم نتقابل وجها لوجه ، ولم يجمعنا مكان إلا في الليلة التي دعي فيها لحفل العشاء كانت أول ليلة يتعرف فيها عليّ .. أما أنا فكنت أعرفه من قبل ، كان أبي يحكي لي عنه حتى اشتقت إلى رؤيته، وعندما كان يتردد على بيتنا قبل حفل العشاء كنت أتوارى وأرمقه من بعيد ، ومنذ أن تعرف عليّ في حفل العشاء كل ما بيني وبينه ليس إلا نظرات نرسلها عن كثب أبعث فيها حنيني إليه ، ويبعث لي في نظراته أشواقه الحرّى وحبه الدفين ، كنا في حبنا كفرسان الزمن الجميل ، نكتفي بالإشارة .. بابتسامة يلقيها أحدنا إلى الآخر من بعيد ، فتكون كالغيث يهمي في الأراضي الظامئة، تتلقاه

بشوق مستطير، فتصوغ الغيث أزهارًا، ومروجًا، وحدائق ذات بهجة .

تُرى .. ما الذي يمكن أن يصرفه عني؟! ما الذي يمكن أن يغضبه مني ؟! لست أدري؟! أترينه هام عشقًا بسواك ؟! أم ترينه في مصاب فادح، أو ألمّ به داء عضال فحجبه عني ؟!

لست أدري .. كل شيء يمكن أن أغفره له إلا أن يخدعني كي أقع في شراك حبه ثم يتركني ويهرب ، أبهذه السرعة يمل مني ؟! لماذا جعلني أتعلق به إلى هذه الدرجة ؟! يا ترى.. هل هو خطأه أم خطئي ؟

آه .. كاد رأسي ينفجر .. !!

إن ما أعجبني فيه بساطته .. رومانسيته الراقية البسيطة غير المتكلفة، إن ما شدني إليه ثقافته.. طموحه .. أدبه .. رقته ، هل شخص فيه كل هذه المواصفات يمكن أن يخدع ويكذب؟!

أين أنت يا حبيبي ؟! هل نسيتني؟ عد إلى أميرتك ..! بل عد إليّ يا أميري ..!

تخطفتها الظنون ، ولعبت بها الوساوس حتى طال ليلها ، وجفا النوم أجفانها، فصحت من أوهامها على صوت "عبد الوهاب" ينبعث من غرفة أبيها يسري في هدأة الليل كالخرير العذب حين ينساب بين الحقول :

" قالوا لي هان الود عليه   ونسيك وفات قلبك وحداني
رديت وقلت بتشمتوا ليه   هو افتكرني علشان ينساني
أنا بحبه.. وأراعي وده   إن كان في قربه ولا في بعده
وأفضل أمنّي الروح برضاه   ألقاه جفاني وزاد حرماني
هو اللي حالي كده وياه   كان افتكرني علشان ينساني

لم تكد تنتهي الأغنية حتى هاجت أحزانها، وانهمرت دموعها، وشطحت من جديد في عالم من الأوهام ، بل في أضغاث من الأحلام لا أول لها ولا آخر .. يومًا بعد يوم تعيش في دنيا مغلقة عافت فيها الزاد حتى شحب لونها ، وتقرحت أجفانها ، وذبلت نضارتها، ونحل جسمها ..!

لم تستطع الذهاب إلى كليتها ، ولم تعد تأنس إلى كتبها حتى لاحظ والدها ذلك التغير عليها، فسألها ذات مساء:

ـ ما بك يا "ياسمين" ؟

ـ لا شيء يا أبي .

ـ هل أنت مريضة يا حبيبتي؟

ـ أنا بخير والحمد لله .

ـ لا .. لست على ما يرام .. أنا والدك وأحس بك ..لابد أن تصارحيني .

ـ قلت لك ليس بي شيء .

ـ يا ابنتي .. صارحيني .. لقد تغير فيك كل شيء ، انظري في المرآة .. لست "ياسمين" التي نعرفها .. لقد أصبحت فتاة أخرى ، سأستدعي الطبيب .

ـ أرجوك يا أبي .. أنا لست مريضة ، ولكني مرهقة بعض الشيء بسبب المذاكرة .

ـ أنا لست أحمق يا ابنتي .. لقد علمتني الحياة الكثير والكثير، وأقسم لك بأنك تعانين أزمة نفسية .

ـ من فضلك يا أبي أنا لست مجنونة ..!

ـ ومن قال لك بأنك مجنونة ؟ أنا أقول بأنك تمرين بأزمة .. ربما تكون عاطفية ، وهذا ما أرجحه .

ـ اطمئن يا أبي .. لست أمر بأزمة عاطفية ولا غير عاطفية .

ـ "ياسمين" ليس لك يا ابنتي في الحياة غيري ، وليس لي سواك.. لو طلبت يا ابنتي نجمة من السماء لقطفتها من أجلك .. صارحيني ، وستجدين الحل عندي ، لقد عودتك منذ صغرك أن تصارحيني بكل شيء، لماذا تخفين عني الآن ما يجعلك في هم وكرب؟! اشكي لأبيك .. فضفضي عن نفسك .. سأكون لك خير صديق .

ـ أنا ..

ـ هه .. قولي يا ابنتي .. أنت ماذا؟

ـ كنت .. أريد أن أسألك عن "عاصم" .

ابتسم الأب ابتسامة الواثق من فراسته ، ثم قال:

ـ ما الذي تريدين أن تعرفيه عنه ؟!

ـ هل ترك الشركة ؟!

ـ لا .. لم يترك الشركة.

ـ لماذا لم يعد يزورك ؟

ـ في الواقع أنا لا أعلم السبب الحقيقي ، ولكني حينما سألته في هذا الأمر أخبرني بأنه مشغول هذه الأيام بعائلته التي أحضرها لتقيم معه في هذه المدينة ، وقد علمت مؤخرًا أن والده مريض، وهو الذي يرعاه بنفسه، ويسهر على راحته .. والله هذا الولد كل يوم تزداد محبتي له ، رغم كل ما فعله أبوه معه ، لم يتنكر له ، بل انتشله من حالة الفقر التي كان يعيشها هو وزوجته وأبناؤه، وهو الذي ينفق عليه الآن في مرضه.

ـ أليس من الواجب أن نزور والده المريض ؟

ـ بلى .. إنه من الواجب ، غدًا إن شاء الله سنذهب إليه لنطمئن عليه.

ـ أشكرك يا أحلى وأغلى أب في الوجود .

ـ تعال هنا .. أراك تغيرت بعدما علمت السبب الذي من أجله لم يحضر "عاصم".

ـ إلى الأحسن أم إلى الأسوأ ؟

ـ طبعاً إلى الأحسن ، يبدو أن ذكر "عاصم" فيه الشفاء .

طأطأت رأسها في حياء ، واحمر وجهها خجلا ، وقالت وهي تتثنى دلالًا :

ـ أبي .. لا تحرجني .

ـ لو كنت أعرف من البداية أن غيابه هو الذي جعلك في حالة الهم والكرب والحزن هذه لأحضرته بنفسي إليك من أذنيه.

لم تستطع أن تتحمل صراحة أبيها الزائدة ، فجرت على ثغرها ابتسامة حيية ، وصعدت إلى حجرتها مسرعة، بعد أن دب الأمل في نفسها، ودبت الحياة في أوصالها ، وتوردت من جديد وجنتاها ، ولمعت ببريق الشوق والحب عيناها .

****

(19)

من جديد عادت "ياسمين" إلى شرفتها بعدما عادت إليها نضارتها وحيويتها ، تتنسم نسيم الأصيل اللطيف ، وتنتشي أريج الزهور والرياحين الفواحة التي تعبق بها أرجاء الحديقة.. !!

تنتظر قدوم "عاصم" كما كانت تنتظره من قبل ، وهي على يقين هذه المرة بأنه لا محالة قادم؛ إذ ذهبت مع والدها لزيارة والد "عاصم" في المشفى بالأمس القريب ، وتعرفت هناك على أفراد عائلته، ووعدهم "عاصم" برد هذه الزيارة في الغد .

كانت تترقب بنظرات عطشى ، وحنين ذائب ، قدومه المأمول ليعيد إلى ثغرها تلك الابتسامة الضائعة ، وإلى نفسها ذلك الأمل الحائر..!

هامت لبضع دقائق في كلمات قصيدته التي أضرمت في قلبها نار الغرام ، وأيقظت من غفوة حنين المستهام .. فجأة وعلى غير موعد تنبهت عيناها لمنظر جلب إلى قلبها الإحساس بالخوف والرهبة.

لقد لفت انتباهها قدوم "حسام" ابن سكرتير الشركة بصحبة أبيه وأمه، يبدو أنهم قادمون في زيارة رسمية ليس لديها أدنى معرفة بها ، ارتجف فؤادها حين تخيلت أن هذه الزيارة من أجلها ، نعم لقد ذكر لها والدها ذات مرة أن "حسام" يريد الارتباط بها، وقد أبلغته ردها في حينه بأنها لا تود الارتباط به ، لماذا هم قادمون الآن ؟!

نزلت بسرعة لتتبين الخبر من أبيها قبل دخولهم ، وجدته كعادته في حجرة المكتب ينتظر قدوم "عاصم" ، قالت وهي تلهث وصدرها يعلو ويهبط :

ـ هل ثم موعد بينك وبين الأستاذ "نشأت" الآن؟
ـ لا يا ابنتي .. ليس بيني وبينه أي موعد .
ـ لقد رأيته وزوجته وابنه "حسام" يقفون بسيارتهم أمام بيتنا
.
ـ هدئي من روعك يا فتاتي .. أهكذا يستقبل الأضياف ؟!
رن جرس الباب ، فتح الحاج "علي" الباب ، سألوه عن الأستاذ "شاكر" ، أخبرهم بأنه موجود ثم دعاهم إلى الدخول في حجرة الصالون ريثما يستعد الأستاذ لاستقبالهم ، دخل حجرة المكتب وأعلم الأستاذ بوصول الضيوف .
خرج الأستاذ وخرجت معه ابنته "ياسمين" لاستقبال الضيوف ، استقبلهم بوجه طلق ورحب بهم ، ثم التفت إلى "حسام" وقال :
ـ أهلا بك يا باشمهندس .. كيف حالك ، وحال أعمالك ؟
قال "حسام" وقد بدا عليه أثر الغرور وعلامات الزهو والكبرياء
ـ الحال بخير ، وعلى ما يرام .. لقد حصلت على قطعة أرض وأنوي إقامة مشروع عليها ، وقد تقدمت إلى البنك بطلب قرض لتنفيذ المشروع .
ـ الحمد لله .. أنا أحب الشاب الطموح الذي لا ينتظر وظيفة ولا ينتظر مصروفه من أبيه ، وإنما يسعى لإثبات ذاته .
توجه بعد ذلك إلى والد "حسام" ونظر إليه نظرة حادة ، وقال
ـ أما كان من الواجب أن تتصل بي هاتفيًا تحدد معي موعدًا لهذه الزيارة ؟!
ـ في الحقيقة .. أحببت أن أجعلها مفاجأة لك .
ـ وماذا لو لم تجِدني في البيت ؟ أكنت ترجع بخفي حنين؟
ـ لا .. كنت واثقًا من وجودك في البيت.
ـ ولماذا كنت واثقا من وجودي هل تجري عليّ تحريات ؟

ـ أي تحريات ؟ .. أنا أعلم أن "عاصم" يزورك في هذا الوقت ليناقشك في التقارير اليومية ففضلت أن تكون زيارتي لك في هذا الوقت لأضمن وجودك.

ـ على كل حال .. تشرفنا بكم .

دخل الحاج "علي" بواجب الضيافة ، قدم العصير إلى الضيوف ثم خرج ، بعد أن أخذ الضيوف واجبهم نظر الأستاذ "شاكر" إلى صديقه "نشأت" وقال :

ـ خيراً يا صديقي .

ـ طبعا خيرًا .. أنت تذكر أننا تواعدنا منذ فترة طويلة أن تكون "ياسمين" ابنتك لحسام ابني ، وها نحن أولاء جئنا لنجعل هذا الوعد رسمياً .

نظر الأستاذ "شاكر" إلى "ياسمين" فوجد علامات الغضب تغطي وجهها، وقبل أن تتحدر دموعها على خدها جرت نحو السلم ، وصعدت إلى غرفتها .

ابتسم "شاكر" ابتسامة فيها شيء من السخرية الغامضة وقال

ـ بالطبع أذكر .. لكن هذا الكلام مر عليه سنوات ، كانا لا يزالان طفلين ، أما الآن فقد جدت أمور .

ـ أي أمور جدت ؟!

ـ الأولاد أصبحوا الآن كبارًا .. لكل منهما إرادته وحريته .

ـ بالنسبة لي إرادة ابني من إرادتي ، وابني لن يجد زوجة له أفضل من "ياسمين" ، وأعتقد أن "ياسمين" لن تجد أفضل من "حسام" .

ـ يا سيدي .. هذا الكلام من وجهة نظرك أنت .. الأولاد ليسوا دمى في أيدينا نحركهم كيف نشاء .

ـ أفهم من كلامك أنك تتملّص من اتفاقنا القديم ؟!

ـ يا عزيزي .. لم تصر على تسميته اتفاقًا ؟! سمّه حمقًا ، سمّه غباءً، سمّه أي شيء إلا أن يكون اتفاقًا .
ـ لكن هذا ليس من أخلاق الرجال .
ـ أنت تقول هذا ..؟! أنت تعلمني أخلاق الرجال ؟! أنسيت من أنا ومن أنت؟!
ـ أنا لم أقصد أن أهينك أو أشكك في رجولتك ، ولكني كنت أذكرك بالعهد الذي يجب أن ترعاه وتفي به .
ـ هذا إذا كان عهدًا صحيحًا ، إنما هذا عهد باطل ، وكلام ساقط، ولغو لا معنى له ..!
ـ واضح من كلامك أنك ترفض ابني .
ـ ابنك يا عزيزي لا غبار عليه وألف فتاة تتمناه لكن الزواج أقسام ، واعلم بأن الأيام تتغير ، والأحوال تتبدل.
دق جرس الباب، فتح الحاج "علي" فإذا بعاصم يدلف إلى الصالون فلما رأى الأستاذ "نشأت" وزوجته وابنه أخذته رعدة كاد أن يعود على إثرها إلى الوراء ليرجع من حيث أتى، لكنه انتبه على صوت أستاذه ينادي عليه بصوت جهوري :
ـ ادخل يا "عاصم" لست غريبًا .
دخل "عاصم" .. ألقى عليهم السلام .. ثم تلمس طريقه إلى كرسي بجانب أستاذه ، وجلس في صمت وذهول .
التفت إليه "نشأت" وقال وهو يشير نحو "عاصم" :
ـ أظن أن ظهور "عاصم" في حياتك كان السبب وراء تغيير رأيك .
رد الأستاذ "شاكر" بغضب :
ـ من فضلك يا "نشأت" كن حذرًا في كلامك .

ـ أنا متأكد أنه السبب ، أتفضل هذا الصعلوك على ولدي ؟! أين عقلك يا "شاكر"؟ لقد استطاع بحيله ومكره أن يخدعكما ليستولي على ثروتكما .

انتفخت أوداج "شاكر" واحمر وجهه واستشاط غضبا وقال بصوت عالٍ سمعته "ياسمين" من غرفتها :

ـ الزم حدودك يا "نشأت" وإياك أن تتخطاها ، لو لم تكن في بيتي لكان لي معك تصرف آخر .

نزلت "ياسمين" لتطمئن على أبيها وحين رأت "عاصم" اطمأن قلبها ، وانزوت في ركن تراقب الأحداث .

قام "حسام" وقامت أمه بعد أن حمي وطيس الجدال فقال "نشأت" بلهجة التهديد:

ــ اعلم يا "شاكر" ، واعلم أنت أيضًا أيها الصعلوك أن "ياسمين" لن تتزوج إلا "حسام" شئتم أم أبيتم ، وإلا نفخت في الرماد وأشعلت نارًا خامدة .

ـ أراك تهددني يا "نشأت" .. صحيح لقد مات من كان ذا حياء .. ما الزلة التي تمسكها عليّ حتى تهددني بها ؟! نعم .. تذكرت ..تقصد الماضي الدفين ؟! لقد خاب سعيك ، وظهرت وضاعتك .

نادى بأعلى صوته على ابنته، وعلى الحاج "علي" وزوجته، وعلى مربية "ياسمين" ، والبستاني، والبواب ، وحشدهم جميعا في صالون البيت ثم وقف أمامهم كالخطيب وقال في ثورة عارمة :

ـ تعالوا جميعاً لتروا عجائب الزمن .. "نشأت" الذي تفضلت عليه وأسبغت عليه من كرمي طوال عمره يهددني.. أتعرفون بم يهددني؟!

تطلعت نحوه الوجوه في صمت وخشوع يترقبون المفاجأة ، بينما ظل يواصل حديثه : ـ هذا الرجل يا سادة يريد أن يأخذ مني ابنتي غصبًا وإلا فضح أمري أمام الناس .. فليقل ما يشاء لم يعد

يهمني الناس ، كل ما يهمني رضا ربي ، وسعادة ابنتي .. أيها الناس هذا الرجل يريد أن يحدثكم حديثا ويخبركم خبرا فلتسمعوه جيدا.. تكلم يا "نشأت" أخبرهم عن السر الذي تهددني به ..!

هذا الرجل يريد أن يخبركم بأني لقيط ، وأني نشأت وترعرعت في الملجأ، لا أعرف لي أهلًا ولا أعلم لي بلدًا .. لمعت عيون الحاضرين، وتطلعوا إلى مزيد من الأسرار، واصل الأستاذ حديثه :

ـ نعم تلك هي الحقيقة ، لقد نشأت في الملجأ لا أعرف لي أبا أو أما، لكنني بعدما أصبحت شابًا وحصلت على كلية التجارة شققت طريقي ، وعملت ليل نهار.. في الملجأ كمشرف ليلي ، وخارج الملجأ كبائع في محل.. تعرفت على ابنة صاحب الملجأ ، كان والدها رجلا ثريا ومنفقا في وجوه الخير، لكنه لا يقيم في القصر المجاور للملجأ ، كان يعيش في مدينة بعيدة ولما توفي هذا الرجل جاءت ابنته إلى القصر لتنظفه وتعيد ترتيبه ، تعرفت عليها ونشأت بيننا قصة حب بريئة وطاهرة ، توجت بزواجنا رغم معارضة شقيقها الوحيد هذا الزواج ، وهددها بحرمانها من الميراث ، لكنه بعد أن علم بمرضها رق لها ، وقدم لزيارتها وأشفق عليها ورد لها حقها في ميراث أبيها ، لكنها للأسف فارقت الحياة ، وابنتها لا تزال طفلة صغيرة في عامها الثاني ، قررت أن أعكف على تربيتها، تاجرت بمال زوجتي حتى أصبح عندي مصنع والمصنع أصبح مصانع بفضل جهودي وتعبي وكدي ، هذه يا سادة نقطة ضعفي التي أراد الأستاذ "نشأت أن يلوي عنقي بسببها.

وأنا أعلنها لكم بأنني لن أجد أحدا يصون ابنتي ولا يحميها مثل "عاصم" هذا الشاب الذي رأيت فيه نفسي ، ورأيت فيه مستقبلي ، وإن كان في تاريخه نقطة ضعف في نظر أمثال الأستاذ "نشأت" فهو على الأقل أفضل مني لأن له أبا وأما وعائلة أما أنا فما كنت لأعرف أهلي ولا عائلتي

يا سادة أعيدها على مسامعكم لقد قررت بأن يوم الخميس القادم سيتم فيه عقد قران " عاصم" و"ياسمين" في حديقة هذا القصر حتى لو وقف ضدي كل سكان الأرض ، وسأعقد غدًا إن شاء الله اجتماعًا رسميا في مقر المجموعة يحضره كل العاملين وأقص عليهم قصتي التي لا أخجل منها.

خرج "نشأت" وعائلته يجرون ذيول الخيبة ، وقد اسودت وجوههم ، وخاب سعيهم ، في الوقت الذي تهلل فيه وجه "عاصم" وازداد إشراقا ، وأقبلت "ياسمين" تجري نحو أبيها وألقت بنفسها في أحضانه ، وجعلت تمسك يده تقبلها اعتزازًا وافتخارًا بهذا الرجل الذي لم تهمه سمعته بجانب سعادة ابنته ، مد "شاكر" ذراعه إلى "عاصم" يدعوه إلى حضنه هو الآخر حتى أصبح الاثنان تحت ذراعيه ، ضمهما إلى صدره بحنان ، وقال:

ـ الحمد لله الذي أحياني إلى أن رأيت ابنتي مع من يستحقها ، ويعرف قدرها، ويضحي بروحه من أجل إسعادها .

ثم التفت إلى "عاصم" وقال:

ـ لا تنس يا عاصم أني منحتك ثمرة فؤادي .. إياك إياك أن تغضبها.

ـ سأكون لك يا سيدي الدهر شاكرًا ، أما ابنتك فهي أكبر نعمة منّ الله بها عليّ ، سوف أصونها وأرعى حقوقها ، وأكون لها نعم الزوج .

لم يمض أسبوع واحد حتى تم الزواج الميمون، وغرد العصفوران الحبيبان في قفصهما الذهبي أعذب الألحان، وأصدق الأناشيد، ورزقا بثلاثة أبناء، ملئوا على جدهم الحياة ، فأصبح يلهو معهم كطفل صغير، ملقيا وراءه أعباء السنين.

تمت بحمد الله .

السيرة الذاتية للمؤلف

الاسم : إبراهيم عبد العزيز إبراهيم سمري .

الشهرة : إبراهيم السمري.

العنوان : شبرا بيل ـ مركز السنطة ـ محافظة الغربية ـ جمهورية مصر العربية.

حاصل على ليسانس آداب قسم اللغة العربية 1989م.

حاصل على تمهيدي للماجستير في علم اللغة 1992م، والماجستير 2017م .

الوظيفة: معلم خبير لغة عربية، وتربية إسلامية بالمرحلة الثانوية.

<u>المؤلفات :</u>

1 ـ أنا العربي (ديوان شعر فصيح) .
2 ـ الزهرة الحائرة (ديوان شعر فصيح) .
3 ـ اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين .
4 ـ أبو تمام ، حياته وعصره.
5 ـ الإسلام يشرق من الغرب .
6 ـ العنصرية وموقف الإسلام منها.
7 ـ القدس وآفاق التحدي.
8 ـ العزيمة (رواية).
9 ـ روائح الزمن الجميل (رواية).
10 ـ ابتسامات القدر (رواية).

11 ـ جفاف المشاعر (مجموعة قصصية).
12 ـ الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية (دروس تربوية للدعاة المعاصرين).
13 ـ الجهاد في الإسلام (مفهومه، وأنواعه، وأهدافه، وضوابطه).
14 ـ معالم الفكر الاقتصادي عند الدكتور محمد شوقي الفنجري.
15 ـ تنمية المجتمع من منظور إسلامي.
16 ـ منظومة القيم الإسلامية ودورها في تأكيد التعايش في المجتمع المعاصر.
17 ـ النظام السياسي الإسلامي، أسسه، وآلياته، وموقفه من الديمقراطية.
18ـ عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل.
19 ـ الإيجاز والرمز في لغتنا الجميلة.
20 ـ حب الوطن والانتماء إليه من منظور إسلامي.
21 ـ الغلو والتطرف الفكري أسبابه ومظاهره ونتائجه.
22 ـ الأزهر ماضيه وحاضره ومستقبله.
23 ـ التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوى الإسلامية.

البريد الإلكتروني: eb_semary@yahoo.com
الهاتف المحمول : 01226487135

الفهرس

